١٩٤

HARLEQUIN®

روايات احلام

شفاه حائرة!

لوسي غوردن

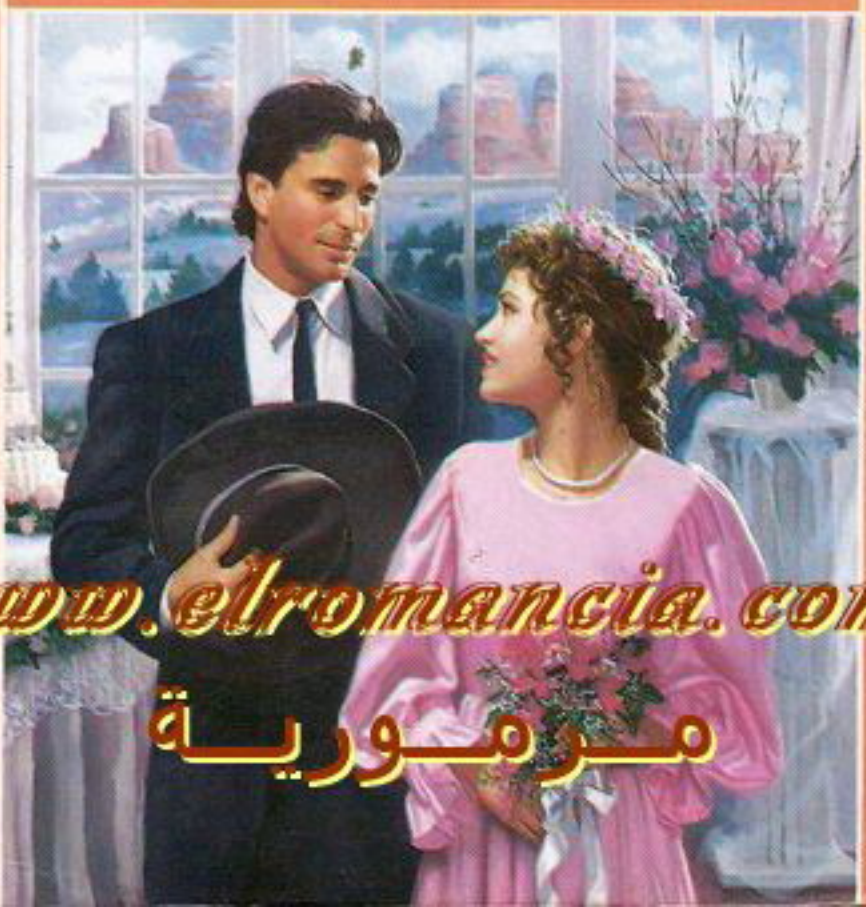

www.elromancia.com
مرمورية

شفاه حائرة!

في حياة كل إنسان صدفة... صدفة تقلب حياته رأساً على عقب وتذهب بما خطط له أدراج الرياح.

هذا ما حدث مع جينيفر نورثون، فقد طلبت من وكالة خاصة مرافقاً لسهرة واحدة فقط... ولكنها حصلت على ستيفن ليري المليونير المتعجرف!!.. وكان كل شيء إلا المرافق الذي طلبته...

قالت له: لن يروي غليلي إلا الحصول على رأسك في طبق...

ولكن كيف ستعود حياتها دون هذا الرجل الذي يثير عداءها وحبها، ضحكها وبكاءها، رقتها وقسوتها في الوقت ذاته؟... هذا الرجل الذي يملك كل ما تتمناه المرأة، إلا ما تبحث عنه جينيفر في الرجل: الحنان والأمان...

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	الإمارات: ١٠ دراهم	مصر: ٥ جنيه	ليبيا
سوريا: ٧٥ ل.س	قطر: ١٠ دراهم	المغرب: ١٥ درهم	اليمن
الأردن: ١,٥٠ دينار	البحرين: ١ دينار	تونس: ٢ دينار	السودان
الكويت: ٧٥٠ فلس	السعودية: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال	العراق

شفاه حائرة

لوسي غوردون

روايات احلام

www.elromancia.com

لوسي غوردون

بدأت لوسي غوردون عملها في مضمار الكتابة، ككاتبة صحفية في عدة مجلات. أجرت مقابلات مع أكثر الرجال شهرة في العالم بمن فيهم «ورن بتي»، «ريتشرد تشامبرلين»، «روجر مور»، سير «أليك غينيس» وسير «جون غيلغاد». واختبرت في رحلة سفاري إلى إفريقيا، الحياة في العراء مع الأسود، كما عاشت مغامرات غريبة كثيرة شكلت خلفية غنية لرواياتها.

تزوجت من إيطالي التقته في عطلة كانت تقضيها في ڤنيسيا. عقدا خطبتهما بعد يومين على اللقاء وهما متزوجان منذ خمس وعشرين سنة. يقيمان الآن في «ميدلاندز» مع كلابهما الثلاثة.

نال كتابها His Brother's Child، جائزة الكتّاب الروائيين الأميركيين سنة ١٩٩٨، في فئة أفضل رواية عاطفية تقليدية.

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
Tycoon for hire
First published in Great Britain 1999
Harlequin Mills & Boon Limited

© Lucy Gordon 1999
Translation © Dar El-Farasha- 2000

ISBN 9953 - 15 - 007 - 9

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: ٨٢٥٤/١١ هاتف/ فاكس: ٨٤١٤٠٢ - ١ - ٩٦١ - بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

١ ـ ضعيفة أمام العدو

ـ لماذا ترتدين هذا الثوب؟.

تراجعت «جينيفر» إلى الخلف لتدع أخاها يدخل البيت. كانت تشعر بالتوتر وهي تترقب حفلة هذه الليلة، وزاد غيظه الأمر سوءاً.

قال: ظننتك اشتريت ثوباً جديداً لأجل حفلة الليلة، إنه من الساتان الداكن الزرقة، كما إنه ضيق مثير للغاية.

وألقى نظرة استخفاف على ثوبها الفضفاض المصنوع من الموسلين، ثم تابع: إنك ذاهبة إلى حفلة رسمية وليس إلى اجتماع ديني.

فقالت تسترضيه: آسفة يا تريفور، لكنني لم أستطع ارتداء ذلك الثوب الأزرق. إنه مكشوف جداً.

ـ لم يكن هذا رأيك حين اشتريته؟.

ـ بلى، لكنني وافقتك وأنت تقنعني أن من واجبي الذهاب إلى تلك الحفلة، ثم عدت فرأيته غير مناسب. ياليتني أتمكن من إلغاء كل ذلك!

قال أخوها محذراً: «لا يمكنك هذا، كم مرة علي أن أنبهك إلى أهمية المظاهر؟ يعلم الجميع أنك تمثلين الشركة في تلك المأدبة. إنها تتعلق بشؤون العمل، عليك أن تكوني هناك».

ـ لكنني كنت سأذهب مع دايفيد.

ـ وها هو الآن قد نبذك....

ـ لم ينبذني... كل ما في الأمر أننا.. لم نر بعضنا منذ فترة.

ـ على كل حال، ليس بإمكانك أن تبتعدي عن نشاط الشركة، هذا هو المهم. كما لا تستطيعين أن تذهبي وحدك فهذا يظهرك ضعيفة بينما عليك أن تعلني للعالم عدم اهتمامك.

فأجابت بحزن: لكنني مهتمة فعلاً.

كانت جنيفر قد صممت على حضور الحفلة مع دايڤيد كونر، الرجل الذي أحبته والذي توقعت الزواج منه. لكنه لم يتصل بها منذ شجارهما قبل أسبوعين فانكسر قلبها ولم تفكر إلا في قضاء ليلة الحفلة هذه منزوية في بيتها ترتشف الكاكاو وتفرغ حزنها مع الدموع. لكنها، بدلاً من ذلك، وجدت نفسها ترتدي ملابسها لكي تخرج مع رجل غريب.

ـ كم أكره أن أظل أخفي مشاعري وراء قناع من المظاهر.

فأدلى تريڤور بنصيحته: «لا تدعي العدوّ يرى ضعفك أبداً».

ـ كما إنني أكره اعتبار كل إنسان عدواً لي.

ـ هكذا تُنجز الأعمال.. هيا، حتى الآن تصرفك في دنيا الأعمال كان رائعاً.

ـ لكنك لا تثق بي تماماً، أليس كذلك؟ ولهذا مررت بي أثناء عودتك إلى بيتك من العمل... أردت أن تقضي على ترددي في الذهاب. حسناً، أنا مترددة فعلاً.

يعمل الأخوان في شركة «مشاريع نورثون» التي أنشأها جدهما «بارني نورثون» فهما يملكان سندات في الشركة، ويديرانها بينهما منذ ألزم المرض جدهما على التقاعد. أما الفرق بينهما فهو أن «تريڤور» يعيش العمل ويتنفسه، بينما «جينيفر» لا تذهب إلى الشركة إلا إرضاءً لجدها.

كان تريڤور رجلاً معتدل الطول قوي البنية، في الثلاثينات من عمره. لولا عبوسه الدائم تقريباً لكان رجلاً جذاباً، ولطالما احترمت فيه جنيفر تكريسه نفسه لعمله، لكن من الصعب عليها أن تحب رجلاً حاد الطباع كثير الانتقاد بهذ الشكل.

ـ كوني عاقلة، وارتدي ثوبك الفرح ذاك بدلاً من هذا.

ـ آسفة يا تريڤور، ولكن هذا الثوب مسر للنظر أيضاً.

فقال وهو يشد شعره: «رجاءً، فهذه الليلة سوف أتصل بشخصيات كبيرة. ابتسمي وارقصي معهم بحرارة. إن مظهرك يساعدك على ذلك».

صحيحٌ أن الطبيعة أغدقت على جنيفر جمالاً يساعدها على القيام بالدور الذي يحدثها عنه فعيناها الواسعتان السوداوان تحتلان وجهها البيضاوي، وفمها جميلٌ مغرٍ. لكن الطبيعة أغفلت شيئاً اضافياً، وهو أن جينيفر لا ترغب في استخدام جمالها في المجال الذي يريده أخوها. ولكن يبدو أنه لا يفهم هذا إذ أخذ يقول لها: «تملكين مزايا، فتباهي بها».

فأجابت بحدة: «لماذا لا تتباهى بمزاياك أنت أيضاً، إذا كنت تعتبر ذلك هاماً؟».

ـ لأن مزاياي لا تظهر في ثوب ضيّق من الساتان... إنني أبرع في غرفة الإدارة وليس في قاعة الرقص.

ـ لا بد أنني جننت إذ سمحت لك بإقناعي بالذهاب من دون دايڤيد، واستئجار مرافق بدلاً منه... فكر في ذلك تريڤور.. أن تستأجر رجلاً ليرافقني إلى الحفلة.

قال وقد فرغ صبره: «سبق وأخبرتك بأن الأمر ليس على هذا النحو... إن «جاك» زبون جيد وحفيده ممثل، ويبدو أنه فاشل، وهكذا يملأ فراغه كمرافق بالأجرة. أخبرت المكتب بأنك تطلبين «مايك هاركر» بالذات، أليس كذلك؟».

ـ نعم، فعلت ذلك قبل أن تشير عليّ به وكنت حذرة لئلا أكشف عن معرفتي بجدّه حرصاً على كرامته.

ـ هذا حسن، يبدو أنه حساس لا يقبل مساعدة الآخرين... بماذا تحججت لطلبك له بالذات؟.

ـ قلت لهم إن البعض أخبروني أنه وسيم جداً، وأن هذا ما أريده.

ـ هذا حسن. أكّد لي «جاك» أنك ستكونين آمنة معه تماماً، لأنه مهذب جداً. رباه، ما هذا؟.

التفتت جينيفر إلى حيث أشار باصبعه، ثم قالت: إنها قطة.

- أهو حيوان آخر من حيواناتك المشردة؟.

- وجدت «مخالب» خارج الباب الخلفي، إذا كنت تعني هذا.

- «مخالب»؟ هل أطلقت عليها هذا الاسم؟.

- نعم لأن مخالبها بيضاء بعكس بقية جسمها الأسود تماماً.

- غريب أن يقصدك كل شريد بأربع قوائم. لا بأس ما دمت لا تحضرين حيواناتك إلى المكتب، كما فعلت بآخر حيوان اقتنيته. أذكر أن «بيل ميرسر» كان على وشك أن يوقع معنا عقداً مربحاً للغاية، عندما زحفت حيّة لعينة على مكتبك، فكاد يصاب بنوبة قلبية.

- كانت حية عشب صغيرة حلوة جداً وغير مؤذية على الإطلاق.

- ماذا عن الجرذ؟... كلا، لا تدعيني أتحدث عن الجرذ! على كل حال، هذا لا يدل على أنك سيدة أعمال.

- حسناً، لم أكن امرأة عملية قط، أليس كذلك؟ لست مثلك ولست على الصورة التي تمناها جدي. ما كان لي أن أكون عضواً في هذه الشركة على الإطلاق، أحياناً أفكر أن أخرج منها ما دمت ما أزال في العشرينات، أجرّب عملاً آخر.

قال تريڤور مذعوراً: «لا يمكنك أن تفعلي هذا بجدنا بعد كل ما قام به لأجلنا... أنت دوماً كنت مدللته، فإذا هجرته فستحطمين قلبه».

أجابت بإشارة عاجزة كمن ناقش الأمر طويلاً مع نفسه: أعلم هذا.

لا يمكن لها أن تؤذي جدّها.

رد تريڤور: «أتمنى لو تستعملين عقلك أكثر قليلاً من العادة فأنت مندفعة جداً».

وكان هذا صحيحاً فقلبها رقيق عفوي وهي ميزةٌ غالباً تتعارض مع عملها، أما ذهنها فمتيقظ... وقد تعلمت عملها جيداً، لكن البشر والحيوانات ظلوا أكثر أهمية في نظرها.

لم تحاول شرح ذلك لتريڤور فلطالما فشلت في هذا فيما مضى، فاكتفت

بالقول: إنك، هذه الليلة، قليلِ التفكير حقاً. فالفكرة مجرد جنون.

- كلام فارغ... والآن عليّ أن أذهب. ارفعي رأسك بزهو.

ثم منحها قبلة خاطفة على وجنتها وذهب.

عندما أصبحت جنيفر وحدها أطلقت تنهيدة حزينة... كانت هي وتريڤور صديقين حميمين في صغرهما. ولكن مضى وقت طويل على ذلك، أما الآن فالأمر تغير... في الواقع أخذت تشعر بأن قوة خفية تسلب منها السيطرة على حياتها، وخصوصاً هذه الليلة.

تحدث تريڤور عن جدهما وعن تضحياته لأجلهما. لقد احتضنهما حين ماتت أمهما وكانت هي في الثانية عشرة وتريڤور في السادسة عشرة... أما أبيهما فلم يعلم أحد قط مكانه، فقد هجر أسرته قبل عامين بعد أن طلق زوجته وسافر إلى الخارج مع حبيبته الجديدة، هكذا لم يبق لهما سوى جدهما...

كان الجد بارني عطوفاً، لكنه جرف الولدين إلى حياته المحمومة. فكان يأخذهما معه من مكان إلى آخر. وكان هذا ممتعاً مع أنه لم يساعدها على التخلص من اليتم الذي يتملكها. لكنها أحبته وكافحت في سبيل إرضائه. فاجتهدت في دروسها وابتهجت بإطرائه حين كانت تحصل على علامات عالية، ثم ابتدأت شيئاً فشيئاً تتقبل فكرة الدخول في الشركة.

أما هو فكان يقول بسعادة: «إنني متشوّق حقاً إلى اتخاذكما شريكين لي».

التحق تريڤور بشركة نورثون حالما ترك الدراسة، بينما أخذ الجد يعدّ حبيبته جينيفر بدورها... لم يطاوعها قلبها أن تصارحه بأنها تفضل العمل مع الحيوانات فهي لن تخيّب أمله فحسب بل ستغامر بفقدان حبه أيضاً، خاصة وأنها تدرك منذ وقت طويل كم يؤلمه ذلك.

وهكذا دخلت الشركة، وأنجزت كل مهمة على أفضل وجه فتعاظم فخر جدها بها... وعندما تراجعت صحته منذ خمس سنوات، كان تريڤور وجينيفر مستعدين لتسلم مقاليد العمل، ليستمتع هو بتقاعده. أما جينيفر فبدت امرأة عاملة ناجحة متألقة لكن في أعماقها ظل شعور بالفشل والعجز

يتملكها.

وها هي ذي الآن، تستعد لحضور مناسبة عملية لا تهمها مع رجلٍ لا تعرفه، وتتمنى من كل قلبها لو تجد منفذاً للنجاة.

* * *

وقف ستيڤن لبري أمام باب الشقة وهو ينظر إلى ما يحيط به بعينين ملؤهما الدهشة والفزع.

ذات يوم، كان صديقه «مايك هاركر» نجماً سينمائياً ذكياً لامعاً. لكن ذلك كان منذ اثني عشر عاماً. وقد بقي ستيڤن على اتصال به، لكنهما لم يلتقيا منذ خمس سنوات. وها هوذا الآن يفاجأ به يعيش في هذه المزبلة بعد أن حطّ به الدهر.

انشق الباب قليلاً، وبدت عين حمراء محتقنة، ثم سأله صوت خافت: «من أنت؟».

ـ إنه أنا يا مايك... ستيڤن.

ـ يا للهول، يا ستيڤن.

وجذبه مايك إلى الداخل ثم أغلق الباب بسرعة وهو يقول: خفت أن تكون صاحب البيت.

رحب كل منهما بالآخر ثم أخذا يتأملان ما غيرته السنوات فيهما. كان مايك ما يزال وسيماً، رغم احمرار أنفه وكلل عينيه.

قال وهو يبعد ستيڤن عنه: ابق بعيداً عني. فأنا عدوى أنفلونزا متنقلة.

قال ستيڤن وهو يرى بذلة رسمية معلقة على المشجب: أتراني جئت في وقت غير مناسب؟ يبدو وكأنك ذاهب إلى حفلة مسرحية.

أجابه مايك ساخراً: «لو أنني ما زلت أقيم حفلات مسرحية، أكنت لأسكن في مكان كهذا؟».

بعد تناول القهوة تبادلا حديثاً مربكاً مضطرباً... بدا ستيڤن محرجاً لا يجرؤ أن يسأله عن عمله في مجال التمثيل. وكم كان حرجه كبيراً في أن يتحدث عن نجاحه هو!.

قال مايك: «أتذكر عندما التحقت أنت بشركة «مشاريع تشارتيرز»؟ قلت لك إنك ستمتلك الشركة في النهاية، وهذا ما حدث».

ـ ليس هذا بشيء يذكر.

قال ستيڤن ذلك مقللاً من الحقيقة، «فتشارتيريز» هي حقاً شركة ضخمة بالغة النفوذ، لطالما شكلت إنجازاتها مصدر زهو له وبهجة.

قال لمايك «عليك أن تكون في الفراش».

ـ بل عليّ أن أخرج. إنني أكسب معيشتي عبر العمل في مكتب لتأجير المرافقين، ولديّ مهمة هذه الليلة.

هتف ستيڤن بذعر: هل أنت ما يسمونه «جيغولو»؟ الرجل الذي تستأجره النساء لمرافقتهن في الحفلات؟.

ـ كلا، تباً لذلك. أنا لست «جيغولو». إنها وظيفة محترمة تماماً. إذا أرادت امرأة أن تذهب إلى مناسبة اجتماعية، ولا مرافق لها فهي تتصل بالمكتب الذي أعمل فيه وتستأجرني. ليس المطلوب مني سوى أن أكون حريصاً على إرضائها، وأعطي الانطباع المناسب. وبعد ذلك تذهب هي إلى سريرها وأعود أنا إلى سريري.

ـ حيث ينبغي أن تكون الآن. لا يمكنك مرافقة امرأة وأنت على هذه الحالة، وإلا أصبتها بالعدوى.

ـ لكنها ستعطيني النقود وهكذا لن أتجنب صاحب البيت بعد الآن.

ـ أخبر مكتبك بأن يرسلوا شخصاً سواك.

ـ لقد فات الأوان.

وتملكت مايك نوبة سعال.

ـ ما شكلها؟.

ـ لا أدري، فأنا لم أرها قط. اسمها جينيفر نورثون. وهذا كل ما أعرفه. الحفلة مناسبة تجارية. ولهذا لعلها امرأة أعمال قاسية الوجه، في منتصف الأربعينات، يشغلها تحصيل المال عن إقامة علاقات حقيقية، ولهذا تستأجر مرافقين.

فقال ستيفن بحزم: «نم في سريرك، وسأذهب أنا مكانك».

ـ لكنهم أكدوا أنها طلبتني بالذات.

ـ قلت إنك لا تعرفها؟.

ـ هذا صحيح، ولكن يبدو أن أحدهم حدثها عني.

ـ أيحتمل أنها رأتك على شاشة التلفزيون؟.

ـ لا أظن ذلك.

ـ إذن فهي لا تعرف شغلك؟.

ـ كلا، ولكنها تريد رجلاً وسيماً.

قال ستيفن ضاحكاً من دون أن يجرحه هذا القول.

ـ بينما أنا غول بشع؟.

ـ اسكت، لطالما نلت حصتك وأكثر من الفتيات كما أذكر... ولا أدري لماذا، فأنت تعاملهن أسوأ معاملة.

ـ لأنني لا أتعب نفسي في إرضائهن، إذا كان هذا ما تعنيه. كان أبي يقول دوماً إن النساء أشبه بالحافلات، إذا فاتتك واحدة، سرعان ما تأتي أخرى. انتبه، لقد حرص على الابتعاد عن أمي قبل أن يتفوه بهذا...

وانفجر ضاحكاً.

صحيح أن تقاسيم وجه ستيفن لا تماثل وجه مايك وسامة وتناسباً، لكن كثيرات من النساء يجدنه بالغ الجاذبية، فهو أسمر قوي الجسم عريض الكتفين. حاجباه الكثيفان يظللان عينين نفاذتين تشعان بطاقة جبارة، مما منح وجهه قوة غير عادية. يمكن لابتسامة عريضة من فمه الكبير أن تكون قاسية، لكن ابتسامته حلوة جذابة. أما إذا كان حسن المزاج، فهو بالغ الظرف. وباختصار يهابه الرجال والنساء معاً، قد يبعث الخوف في القلوب، لكنه بالتأكيد ليس رجلاً تختاره امرأة تريد مرافقاً وديداً ظريفاً.

قال: لا يمكنك الذهاب، سأستعمل اسمك وسيكون تصرفي مهذباً قدر الإمكان. الأفضل أن أعود إلى بيتي بسرعة لأرتدي ملابس المساء.

ـ لا وقت لذلك فهي تتوقع وصولي خلال ثلث ساعة... عليك أن

ترتدي ملابسي، نحن نلبس القياس نفسه لحسن الحظ. أرجو ألا تصيبك عدوى مرضي.

ـ أنا لا أصاب بأية عدوى، أتمتع بمناعة قوية. إلى ماذا تنظر عبر النافذة؟.

ـ إلى تلك السيارة الفخمة الجديدة الجاثمة تحت نافذتي، إن كانت لك، فلن يصدق أحد أنك ممثل مفلس.

ـ سأوقف سيارتي بعيداً عن بيتها، ثم أكمل الطريق مشياً. والآن، اذهب إلى فراشك.

* * *

تأخر مرافقها ووافقها هذا تماماً فاستغلت الوقت لتطعم قطتها وتخرجها إلى الحديقة وهي تهتف بها: أسرعي، سيكون هنا حالاً إذا خانني الحظ...

عادت «مخالب» بعد دقيقتين تظهر ولاءها لسيدتها وهي تقفز إلى حجرها.

صرخت جينيفر نائحة وهي تفحص آثار قوائمها على ثوبها: «آه، كلا. لا أصدق أنك فعلت هذا».

وأسرعت إلى الحمام تخلع الثوب الملطخ بالوحل، ثم تبدأ بالبحث عن ثوب آخر وهي ترجو بحرارة أن لا تتحقق مخاوفها.

ولكن تحقق ما كانت تخشاه، إذ لم يبق لها إلا ثوبين مناسبين باقيين... أحدهما في المغسل، والآخر فيه تمزق صغير. وهكذا لم يبق أمامها سوى ثوب الساتان الأزرق الداكن...

صرخت تعنف «مخالب»: «يا لك من حيوان ناكر للجميل! لقد استقبلتك في بيتي وأحسنت إليك، فانظري ما فعلته بي! آه، حسناً، لا أظن بإمكاني إصلاحه الآن».

وهكذا أخرجت الثوب على كره منها، فوجدته أكثر جرأة مما تخيلت. ولكنها لم تدرِ ما البديل!.

كان شعرها البني الكث منسقاً فوق رأسها بجمال... وحين وضعت

عقداً وقرطين من الماس بدت سيدة صغيرة تملك حنكة وخبرة بإمكانها أن تواجه مفاجآت الحياة كلها. لكنها تمنت لو تشعر بذلك فعلاً.

في الوقت المناسب فرغت من زينتها وأخذ جرس الباب يُقرع.

تنفست بعمق، ثم ذهبت لتفتح الباب. وحالما فتحته، أدركت أنها اقترفت غلطة حياتها.

بدا الرجل طاغياً، ولو أنه لا يتحلى بمقاييس الوسامة التقليدية... كانت تشع منه هالة من الكبرياء والإرادة العنيفة. ومنذ اللحظة التي تقابلت فيها أعينهما، أدركت جينفر أنه أخذ يتأملها بتمعن.

بدأ الحرج يغزوها فشعرت بالخجل من ثوبها المكشوف وأحست بنظراته تخترقها أما هو فبدا واضحاً أنه يستمتع بالنظر إلى كل جزء منها، وهذا ما أغضبها ففي النهاية ليس إلا مجرد موظف. والأسوأ أنها لمحت في عينيه لمعاناً ساخراً، وكأنه فهم أفكارها فضحك منها في داخله.

وباختصار، كانت تتوقع رؤية دمية على صورة رجل وبدلاً من هذا تملكها الارتباك. لم يخطر في بالها قط أنها ستقوم بهذه اللعبة المجنونة... وأخيراً، وجدت صوتها: «مساء الخير يا سيد هاركر... لقد تأخرت قليلاً، لكن هذا غير مهم».

اعتذر بصوت لا يبدو فيه الاعتذار.

ـ عفوك سيدتي لقد طرأت عليّ حالة مستعجلة لكنني الآن ملكك.

ثم بسط يديه أمامها معلناً.

ـ كل شيء جاهز، حتى إنني نظفت أظافري لأجل المناسبة.

وأدنى أظافره منها بأسلوب المزاح نفسه الذي ضايقها.

هتفت فجأة: «يا إلهي! أية أزرار هذه؟».

كانت تعلم أن ممثلاً فاشلاً لا يتحمل أن يشتري أزراراً ثمينة للقميص، لكن هذه بدت سيئة حقاً وكأنه اشتراها من بائع جوال.

قال بغلظة: «ما بها؟ إنها أحسن ما لديّ».

أجابت وهي تبذل جهدها لتبدو مهذبة: لا تشكو من شيء.. إنها...

أعني... إنها لا تتلاءم تماماً مع... عندي اقتراح... انتظر لحظة.

أسرعت إلى غرفتها وأحضرت أزراراً أرادت أن تهديها لدايفيد بمناسبة عيد ميلاده القادم. كانت من الفضة مرصعة بماسات صغيرة كلفتها مبلغاً كبيراً. وما إن رأتها حتى خفق قلبها لكنها كبحت شعورها، ثم أطبقت يدها عليها. عندما طلبت من المرافق أن يمدّ يده، رفع حاجبيه بدهشة. أزالت الأزرار الرخيصة ثم ثبتت الأزرار الغالية الثمن مكانها، بعد ذلك رفعت إليه عينيها فرأته يحدق فيها، وشعرت بسخونة تمتلكها وهي تقرأ السخرية الهادئة في نظراته.

نظر إلى الماسات في أزرار القميص، ثم التمعت عيناه وهو يرى الجواهر المرصعة في عقدها وقرطيها فتمتم يقول: أنا مسرور لأنني ألائم حليّك.

رفضت التجاوب مع سخريته ثم قالت: هذه مفاتيح سيارتي، سيد هاركر، هل نذهب؟.

عندما كشف الكاراج عن سيارتها الفارهة، قالت وقد أخذ الشك يتملكها: «ربما من الأفضل أن أقود السيارة بنفسي».

ومدت يدها تستعيد المفاتيح، لكنه لم يتحرك بل أدهشها بصوته الحازم:

ـ اصعدي إلى السيارة. إنني هنا لمرافقتك، وسأقوم بالمهمة على أكمل وجه. لا يناسبك أن تقودي السيارة بنفسك فقد يدرك الناس أنك استأجرتني.

اندفعت بعنف إلى المقعد المجاور للسائق، ثم جلست بينما أخرج السيارة بها من الكاراج بخبرة تامة وكأنه يقوم بذلك يومياً. وتساءلت أين تراه تعلّم هذه المهارة في قيادة سيارة قوية كهذه.

سألها: «من أيّ طريق؟».

ـ وسط لندن. توجه إلى «ترافالغار سكوير»، ثم أدلّك من هناك.

وعندما أصبحا في الشارع، قال بعفوية: أي قصة نرويها للناس؟.

ـ قصة؟.

ـ قصتنا. إذا سألنا أحد، فلتكن إجاباتنا مطابقة. متى تعارفنا؟.

- آه، الأسبوع الماضي.
- إننا حديثا المعرفة. لماذا ليس الشهر الماضي؟.
فردت بسرعة: كلا، إنها مدة طويلة.
- فهمت... كنت تخرجين مع شخص آخر حينذاك؟ لماذا لم تخرجي معه هذه الليلة؟.
- لأننا... لأننا اختلفنا.
- من نبذ الآخر؟.
- افترقنا باتفاق مشترك.
- أتعنين أنه هو الذي هجرك؟.
- لم أعن شيئاً كهذا.
- هل سيكون موجوداً هذه الليلة؟.
- ربما.
- الأفضل إذن أن تخبريني باسمه من باب الاحتياط.
فقالت بجمود: اسمه «دايفيد كونر».
- هل تدربت على رواية قصة تعارفنا؟.
- كلا... لا أدري.. سأفكر في شيء ما.
قالت ذلك شاردة الذهن وشعور بالتعاسة يزداد في نفسها.
- يدهشني أن أراك مشوشة التفكير. لقد اقتربنا من ساحة «ترافالغار سكوير». دليني على العنوان.
- إننا ذاهبان إلى «كيتسبي هاوس». حذار!.
- آسف، لقد انزلقت يدي على المقود.
قال ذلك بسرعة، لكنه في الواقع تلقى صدمة قوية إذ لا بد أن معارفه غير قليلين في ذلك المكان. واتخذ قراراً سريعاً.
- الأفضل أن تعلمي أن اسمي الحقيقي ليس مايك هاركر.
- أتعني أنه اسمك الفني في المسرح؟.
- كلا، إنني... لابأس. اسمي هو «ستيفن ليري». ها قد اقتربنا من

المكان. أخبريني عنك بسرعة.
- اسمي «جينيفر نورثون»، وأنا حفيدة «بارني نورثون» صاحب شركة...
فقاطعها: «شركة نورثون للشاحنات والمستودعات؟»...
فقالت بدهشة: «نعم. ومنظمتنا هي الأفضل من نوعها في البلاد، ونحن ننتشر بسرعة في أوروبا».
وتذكرت فجأة من يكون فأردفت: «المعذرة للتطويل».
- نعم، لا حاجة لتتحدثي عن أشياء معقدة قد لا تتمكن خلايا عقلي من استيعابها.
رفضت أن يهينها، فقالت: توجه نحو المنعطف التالي فتجد موقفاً للسيارات.
عندما أطفأ المحرك، التفتت جينيفر لتفتح الباب، فأوقفها آمراً منه ثم نزل دائراً حول السيارة ليفتح لها الباب وقال بهدوء: انتظري، فهذه مهمتي.
ابتسم وهو يمد يده ليساعدها على النزول... ناولته يدها ثم تمتمت: شكراً.
أوشكت قدمها أن تزل أثناء نزولها، لكنه أسندها وأطبق أصابعه على يدها بشدة حتى شعرت بذبذبات كهربائية تسري منه إليها. وتسارعت خفقات قلبها، فما كان منها إلا أن استدارت عائدة إلى السيارة لتأخذ وشاحها المخملي، لكنه سبقها إليه فتناوله ووضعه بعناية حول كتفيها. لم تستطع كبح الرجفة التي سرت في كيانها حين لامسها ورفعت عينيها فالتقتا بعينيه. كانتا تنظران إليها بحدة بعثت الاحمرار في وجنتيها.
قال جاداً: «أنت رائعة الجمال كما إنك حساسة، وسأشعر بالزهو لأنك معي. كلا، لا تقوليها! أنت لا تهتمين بذلك. حسناً، لا يهمني إن اهتميت أم لا وإنما أخبرك بأنك (ضربة قاضية)!».
كان الحديث صعباً عليها لا تدري لماذا ولكنها أخيراً تمتمت: جيد أن أعلم أن مرافقي برضى عني.

فقال بجفاء: «أنا لست راضياً عنك، فأنا غير راض عن هذا الوضع كله. امرأة بجمالك ما كان لها أن تستأجر رجلاً لمرافقتها. فإن اضطرت لذلك لا شك أن في حياتها ظروفاً سيئاً للغاية. لكنك رائعة، مغرية، قادرة على دفع أي رجل للقيام بما قد يندم عليه لاحقاً... كل ما أتمناه أن أملك الوقت لأكشف فيك عن تلك المتناقضات كلها».

فقالت ووجهها يلتهب: «متناقضاتي لا تعنيك».

أجاب من دون اكتراث: إنها تعنيني إذا أنا قررت ذلك. ولكن من المؤسف أنني لا أملك الوقت! والآن، هيا بنا ندخل.

شاركت جينيفر في الكثير من النشاطات في قاعة «كيتسبي هاوس»، وألفت الأثاث الأحمر الداكن والثريات المتألقة لكن بدت هذه الليلة كأنها ترى كل شيء للمرة الأولى. فالأضواء أكثر تألقاً، أثواب النساء الأخريات أكثر جمالاً، أما ملابس الرجال فبدت أكثر أناقة.

ذهبت إلى غرفة المعاطف لتودع فيها وشاحها. وعندما عادت وجدت ستيڤن ينتظر عند أسفل السلم، فانتهزت الفرصة لتتأمله من بعيد، وتقارنه بسواه من الرجال. كانت المقارنة بأجمعها في صالحه فعلاً. فهو أطول الموجودين قامة تقريباً. وطبعاً كتفاه هما الأعرض وشخصيته هي الطاغية. لكن أكثر ما فتنها فيه هو جوّ السلطة والثقة بالنفس الذي يشع منه. فكيف لممثل عاطل عن العمل أن يمتلك هذا الجو؟ ممثل؟ لقد اتخذ بالطبع المهنة اللائقة به... ثم اقتربت منه باسمة تريد أن تخلق بينهما جواً لطيفاً، وقالت بحرارة: «تهاني».

- على ماذا؟.

- إنك تقوم بدورك على أحسن ما يكون، وكأنك من هذا المكان.

قال بشيء من السخرية: شكراً. لكنني أشعر بشيء من الخجل بين كل هؤلاء الناس المهمين.

- إنهم ليسوا مهمين حقاً، بل يحبون فقط أن يتظاهروا بهذا لأنهم يملكون المال. انظر إليهم باستعلاء، فيعتبرونك واحداً منهم. أتوقع لك النجاح التام

هنا.

وابتسمت بمكر، فلوى شفتيه: لا تشعرين إذن بأنك مجنونة لأنك دخلت في هذا الاتفاق؟.

- بالعكس، فأنا أظنني حصلت على صفقة جيدة.

قال وهو يمدّ لها ذراعه: أنا أيضاً أشعر بأن تصرفي لم يكن سيئاً.

صعدا السلم ودخلا قاعة الرقص الفسيحة، وقد ازدحمت الآن بالناس. وعلى الفور، لاحظ ستيڤن بعينيه الحادتين أن جينيفر غطت على كل امرأة في القاعة. كما أنها تعرف كيف تختار عطرها فهو يدغدغ الأنف ويصل إليه دافئاً.

تساءل من يكون الحبيب الذي لمس قلبها؟ وكيف تتصرف معه؟ هل يفيض وجهها رقة وتشع المشاعر من عينيها؟.

سارا خلال الجموع مبتسمين يردان التحيات. عرفه بعض الأشخاص، وأمضى ستيڤن وقتاً متوتراً وهو يحاول إبعادها عنهم وأدرك أنه سيكون محظوظاً لو تمكن من مغادرة هذه السهرة دون أن ينكشف أمره.

- تعالي إلى البار. سأخبرك بأمر ما بعد أن أحضر إليك شراباً.

- أريد عصير برتقال بما أنني سأقود السيارة أثناء العودة.

قال ستيڤن لعامل البار: أريد كأسين من عصير البرتقال.

وقال لجينيفر ضاحكاً: «تحسباً لإمكانية تغييرك لرأيك».

قالت تتحداه: أتعني أنك تستطيع أن تغيّر رأيي؟.

- هل هذا ما عنيته؟ شكراً لأنك أعلمتني هذا.

كانت عيناه تغيظانها، فلم تستطع إلا أن تبتسم قائلة: هذا ما كنت تعنيه بالضبط.

وأخذت تنظر حولها وإذا بابتسامتها تتجمد. كان دايڤيد يقف على بعد خطوات منها...

***

٢ ـ الاختبار الأول

تساءلت جينيڤر مراراً إن كان دايڤيد سيحضر الحفلة، وقد أدركت الآن أنها ظلت طوال الوقت تتوقعه سراً. خفق قلبها لمجرد رؤية ملامحه المكتملة الجمال تحت شعره الأشقر الكث.

حين التفت إليها قرأت ذهولاً في عينيه... بالتأكد سيمدّ يده إليها في اللحظة التالية وبعدها تتلاشى خلافاتهما كلها... لكنه بقي جامداً، وقد بدا عليه الاضطراب. وفجأةً ظهرت فتاة شابة وألقت بيدها على ذراعه، فأحنى رأسه نحوها ملاطفاً.

تسمرت جينيڤر في مكانها والذهول يكتنفها. لقد ابتعد دايڤيد عنها. ارتسمت في عينيها نظرة كئيبة وبدا المكان حولها خالياً حتى من ستيڤن الذي كان يتأمل وجهها القريب.

انقبض قلبها وهي تفكّر أن دايڤيد وجد فتاة أخرى بهذه السرعة. ثم ابتسمت له الفتاة... كانت ابتسامة رقيقة صادرة من القلب أكسبت وجهها فتنة، ولم تستطع جينيڤر أن تكبت شهقة صغيرة صدرت عنها. فسمعها ستيڤن وضاقت عيناه اهتماماً.

تمتم هامساً في أذنها: إذن هذا هو؟.

ـ من هو؟.

ـ الفتى الجميل مع الفتاة الباهتة البليدة...

ـ لا أدري ماذا تعني بالفتى الجميل...

ـ إنه أشبه بتمثال من السكر على قمة كعكة الزفاف.

قالت بجهد: هل لنا أن نترك هذا الموضوع؟.

ـ لماذا؟ أنا هنا فقط لنريه أنك لا تهتمين به مثقال ذرة. دعينا نريه إذن.. إلا إذا كنت خائفة؟.

أجابت بسرعة: «لست خائفة طبعاً».

ثم تقدمت من دايڤيد ووهي تمدّ يدها.

ـ دايڤيد، ما أجمل أن أراك!.

تراجع دايڤيد، وهو يتمالك نفسه بدوره... علمت أنه لم يكن يتوقع رؤيتها مع رجل آخر، ثم قال: جينيڤر... يا لها من مفاجأة حلوة!

ـ لكنك كنت تعلم أنني سأحضر.

ـ نعم.. آه، نعم طبعاً... دعيني أعرّفك إلى «بيني».

وجرّ المرأة الأخرى إلى الأمام، فنظرت إلى جينيڤر بخجل سرعان ما اتبعته بابتسامتها الحلوة.

ـ أقدم إليك «ستيڤن ليري».

وعندما تصافح الرجلان، بدأت الثقة تعاودها. أصبح دايڤيد يعلم الآن، أنها لم تجلس في البيت تلفها التعاسة وهي ترقب رنين الهاتف. وليس من الضروري أن يعلم كم من المرات كانت على هذه الكآبة.

أمسكت بذراع ستيڤن فابتسم هذا في عينيها بحرارة مسرحية تكاد تكون بلهاء. تملكتها رغبة جنونية في الضحك، وكأنهما، هي وهو، تربط بينهما نكتة لا يفهمها سواهما، حتى ولا دايڤيد.

عبس دايڤيد بضيق، وما لبثت «بيني» أن استحوذت على انتباهه فذهب معها. أما جينيڤر فقد أبقت رأسها عالياً، وابتسامتها مرسومة على وجهها، وكم كان ذلك صعباً للغاية!.

زينت القاعة خمسون مائدة مستديرة ولم تعرف جينيڤر هل تسرّ أم تبتئس لجلوسها في مواجهة «دايڤيد» و «بيني». كانا في مواجهتها تقريباً، فتأملت كيف جذب كرسي بيني ليجلسها عليه بشهامة. كان دوماً مرافقاً شهماً في حفلات العشاء، هكذا أخذت جينيڤر تفكر قبل أن تغرق في الكآبة... إنه

حقاً مرافقٌ ساحرٌ للغاية! عندما حولّت عينيها عنه، سألها ستيفن: حدثيني عن دايفيد كونر. ما عمله؟.

ـ إنه يملك شركة صغيرة لصناعة معدات الماكينات.

ـ هل أنشأ الشركة بنفسه؟.

ـ كلا. لقد تركها له والده.

شغلهما تناول الطعام لفترة، أدى ستيفن أثناءها دوره إلى حد الكمال، مهتماً بكل ما تحتاجه، باسماً. ثم استهلت الخطابات بإلقاء الكلمات الرسمية المعتادة.

انتهى إلقاء الكلمات، وتنفس الناس الصعداء. ثم بدأ بعضهم في التنقل من مائدة إلى أخرى. ومرّ بها شخص أو اثنان فتحدثا إليها. وعندما انتهت، لاحظت أن ستيفن يجلس مع دايفيد «ويبني»، كما رأت دايفيد يتحدث بجدية بينما ستيفن يصغي إليه مقطباً جبينه باهتمام بالغ فتساءلت إن كان المسكين يحاول تغطية سأمه.

قالت له: «ما رأيك في مراقصتي؟».

ـ ليس على سيدتي سوى أن تأمر.

أجاب ستيفن بذلك وهو يقودها إلى الحلبة.

ـ لا تعرفين مقدار السرور الذي يغمرني حين أرقص مع امرأة يسمح لها طولها بالنظر في عينيّ، إن عضلات رقبتي تتصلب في العادة.

ـ خطر لي أن أنقذك من دايفيد.

ـ أخائفة من أن يسمو حديثه الجاد فوق مستوى إدراكي؟.

ـ ماذا أخبرته عنا؟.

ـ إنني فتاك العابث.

ـ هل يمكنك أن تتحدث بجدية ولو لدقيقة واحدة؟.

ـ سأخبرك الآن بجدية! لست واثقاً أنني سأساعدك على استعادته. قد ينتهي أمركما بالزواج، فكيف أصفح عن نفسي عند ذاك؟.

ـ ماذا تعني؟.

ـ إنه ليس بالرجل المناسب لك. ستتشاجرين معه دوماً حتى على المرآة.

ـ يا لهذا الكلام الفارغ!.

ـ ليس كلاماً فارغاً يا «جيني»...

فقاطعته بسرعة: لا تتلفظ بهذا الاسم! دايفيد فقط يدعوني «جيني».

ـ هذا اسم لا يناسبك، على كل حال. «جيني» اسم طائر صغير بني اللون، بينما أنت عصفورة مغردة من عصافير الجنة.

قالت بمرح: «لا تكن واثقاً من كلامك هذا. قد أستحيل غراباً ذات يوم».

انفجر ضاحكاً، فجذب إليه بعض الأنظار، من فيهم دايفيد. تلاشت ابتسامتها على الفور وهي تحدق في وجه ستيفن، فبادر إلى القول متفهماً: لابأس، إذا كنت تريدين اللعب بهذا الشكل! إنك رائعة، وأرجو أن يدرك دايفيد هذا تماماً.

وشدّ ذراعه حولها يجذبها إليه.

ـ إنه مدرك طبعاً.

ـ هل أتى على ذكر الزواج؟.

فترددت: «بطريقة ما».

ـ ماذا تعنين بذلك؟.

أجابت كارهة: «بأعماله لا بكلماته».

ـ لا تخدعي نفسك يا جينيڤر. هذا قول تخدع النساء به أنفسهن، فيعتقدن بأن الرجل قدم إليهن وعداً صريحاً حين لا يكون ذلك صحيحاً. أردته أن يخطبك رسمياً بينما أحجم هو عن ذلك. هل هذا سبب خلافكما؟.

ـ هذا لا يهمك.

ـ بل يهمني طبعاً. فأنا حبيبك حتى منتصف هذه الليلة، وغيور حتى الجنون من الرجل الذي تحبينه. إنك تحبينه، أليس كذلك؟.

ـ تماماً.

ـ يا للحماقة! وما سبب الخلاف؟.

كيف تمنع هذا الرجل من توجيه الأسئلة؟ يبدو وكأنه يملك قوة ساحرة تجذبها إليه وتجعلها رهن اشارته، ولكن من الصعب أن تحدد سبب الخلاف لأنها هي نفسها غير واثقة من ذلك. كانا يتحدثان عن مشكلة صادفت دايڤيد في شركته. رأت هي الحلّ واضحاً، فسّرها أن تساعده. وفجأة رفعت بصرها فرأته ينظر إليها بشكل غريب. ثم سألها بهدوء: هل تعلمين عن هذا الأمر أكثر مما أعلم؟.

حتى ذلك الحين، لم تكن تحس بالخطر، فأجابته ببشاشة: كان ذلك يحدث مع جدي. اسمع يا عزيزي، كل ما عليك أن تفعله هو...

لكنه منعها من متابعة الكلام، متهماً إياها بأنها تحاول استلام المسؤولية. أنكرت ذلك بغضب، لكن الأمور ازدادت حدة بينهما. وعندما افترقا كانت المشاكل قد تفاقمت حتى ضاع السبب الأساسي.

وأخيراً قالت: «لم يكن الأمر يتعلق بالزواج».

ـ أنا مسرور لهذا. فأنت تستحقين رجلاً أفضل منه.

ـ لا تقل هذا.

ـ هذا حسن. أحبك عندما تشع عيناك بهذا الشكل. لا تداومي على مراقبته، وإلا أفسدت تأثيرك. ركزي اهتمامك عليّ أنا. أظنك ضربة قاضية لكنني أضيف إليكِ أيضاً الشجاعة والحيوية.

ـ هل تتحدث دوماً إلى زبوناتك على هذا النحو؟.

ـ زبوناتي...؟ آه، أنا لا أفعل ذلك كثيراً. بل أميل إلى مجابهة الآخرين بالحقيقة الصريحة بدلاً من المجاملة المعسولة. ابتسمي لي فهو ينظر إلينا.

منحته جينيڤر أكثر الابتسامات اشراقاً فردّها لها بالمثل وهو ينظر في أعماق عينيها، قائلاً: هذا عظيم، إنما انتبهي، فأنت أكثر تأثيراً عندما تغضبين.

ـ إذا تجرأت على القول إنني أبدو جميلة أثناء الغضب، سأدوس على أصابع قدميك.

ـ أعدك بألا أقول شيئاً كهذا.

ـ هذا جيد.

ـ حتى ولو كان صحيحاً.

رأته يوشك على الضحك فلم تستطع منع نفسها من التجاوب معه، وسرعان ما كانا يضحكان معاً ثم قالت بمرح: آه، اذهب إلى الجحيم.

ـ هذا أكيد. عندما تكونين بين ذراعيّ يمكنني الذهاب إلى جهنم والعودة منها.

واتجهت عيناه صوب دايڤيد ثم تمتم يقول: «يبدو قلقاً عليك».

ـ من؟.

ـ دايڤيد، لا تقولي إنك نسيت ذلك المسكين؟.

ـ كلا، طبعاً.

قالت ذلك بسرعة. ولكنها حقاً استغرقت في هذا الرجل بكامل جوارحها حتى نسيت دايڤيد لفترة قصيرة.

وفجأة جذبها ستيڤن إليه ثم همس في عينيها: دعينا نقلقه حقاً. ثوبك هذا يعجبني.

أدركت أنه يعني بهذا فتحة العنق، وتملكها الذعر عندما شعرت باحمرار وجهها. كانت واحدة من تلك المحظوظات اللاتي تحمر وجوههن بشكل جذاب فغمرها بنظرات مهتمة، ثم قال: إنك أجمل امرأة هنا.

فهمست: كفاك تملقاً.

ـ لكنك تدفعين لي أجر هذا الكلام.

فصعقت. لقد أوقعها هذا الرجل بسحره، حتى نسيت أنه مجرد وهم اشترت مجاملاته بنقودها بينما هي لا تعني له شيئاً. تمتمت بصوت مرتجف: حسناً، ما دمت تحت امرتي، فأنا آمرك بالسكوت.

ـ لقد استأجرتني لكي أجعل دايڤيد يغار. وهذا ما سأفعله.

أجابت بسرعة، وهي تتذكر قاله لها أخوها تريڤور: بل استأجرتك لمصلحة الشركة.

ـ هراء. إنها فائدة ثانوية فقط، فدايڤيد هو من يهمك أمره. مع أن هذا

لغز يحيرني.

رفع ذقنها بإصبعه. لم تستطع مقاومته، وفجأة أخذ قلبها يخفق بعنف. حاولت تجاهل أحاسيسها والتفكير في دورها التمثيلي. لكنها لم تستطع أن تتذكر ما هو الدور، أو لماذا تقوم به. بدت وكأنها تسبح في حلم.

أذهلها هذا الإحساس الذي تملكها. يجب أن يتوقف عن هذا، عليها أن توقفه. لكنها لم تأت بأي حركة، كما أنها لم تستطع الكلام.

ثم شعرت بيده تقرب رأسها منه، فينحني عليها ويعانقها. وتملكها شعور مدمّر وكأنها فقدت السيطرة على نفسها.

فقدت كل إحساس بالزمان أو المكان. لم تعد تسمع الموسيقى، أو ترى الراقصين الآخرين يدورون حولها بل كانت شبحاً في الفردوس في رقصة يا ليتها تدوم لنهاية العمر! وبدأ قلبها يخفق بعنف حتى صعب عليها التنفس.

همست: «دعني أذهب».

قال ببطء: «لو عاد الأمر لي لما تركتك تذهبين أبداً. لاختطفتك إلى مكان لا يعثر عليك فيه أحد، ثم لاكتشفت أي نوع من النساء أنت حقاً. وقد يكون الجواب مفاجأة لك أنت أيضاً».

ـ ما أشدّ جرأتك!.

ـ هذا غريب، أليس كذلك؟ لكنني أصبحت أعرف عنك ما لن يستطيع دايڤيد كونر أن يعرفه أبداً. أنا أعرف ما أريده منك، أكثر منه.

ذعرت وهي تشعر بكلماته (أعرف ما أريده منك)... كان في صوته عزيمة فولاذية لم تسمعها من رجل. لقد أحبت دايڤيد لرقته وطباعه الحلوة، لكنها في أعماقها شعرت بأنه يفتقر العزيمة. ومع أن العزيمة لم تكن مهمها إلى هذا الحد، لكنها بين ذراعيّ هذا الرجل القوي الإرادة شعرت بتجاوب بعث الرجفة في أوصالها وملأها حذراً.

سمعته يتمتم بكلمة «تباً لهذا». ثم تبددت الأحلام بعد أن أدركت أن الموسيقى توقفت. انسحب الراقصون شيئاً فشيئاً أما هي فبقيت بين ذراعي ستيڤن لبري، تتأمل الصدمة في عينيه وهي تعكس الصدمة في عينيها... لن

يعودا إلى سابق عهدهما أبداً!.

وفي الساعة التالية، انشغلت جينيڤر تلقائياً بالمناقشات التجارية ورأسها يدور نتيجة تلك المواجهة المدمرة مع ستيڤن.

من زاوية عينها، لمحته يرقص مع بيني. وأخيراً أقبل إليها مرة أخرى، وأمسك بيدها ثم قادها إلى البوفيه قائلاً: لا بد أنك بحاجة إلى بعض المرطبات. وكذلك أنا، فقد كنت أعمل لأجلك.

فقالت بلهجة ذات معنى: رأيتك فعلاً ترقص مع «بيني»... كيف وجدتها؟.

ـ إنها ترقص باحتشام تام، بينما أفضّل المرأة التي ترقص وكأنها تتبادل الغزل مع مراقصها.

وبدا التحدي في عينيه، فقالت جينيڤر وهي تغطي موجات حرارة أخذت تتملكها: يمكنني تصور ذلك. هل هذا هو العيب الوحيد الذي وجدته في «بيني» المسكينة؟.

ـ كان حديثها لا يخرج عن كلمتي (نعم) و (كلا)... كما أنها تخطىء في خطواتها، فيما أنظارها لا تفارق دايڤيد... بالمناسبة هي سكرتيرته، ولم يدعها إلى الحفلة إلا بعد ظهر هذا اليوم.

سمعها تتأوه بارتياح، فقال بخبث: يبدو وكأنه ترك الأمر إلى آخر لحظة... لعله رجا أن تتصلي به. لكنه لا يفهمك لأنه أناني، وهو يشعر بسعادة أكبر مع فتاة لا ترتقي إلى مستوى جماله. كان الفراق قدراً لا مهرب لكما منه، أنتما الاثنان.

ـ أنا ودايڤيد لم نفترق نهائياً.

ـ بل هو نهائي إذا تدخلت «بيني» في الأمر، فهي حريصة عليه.

فاندفعت تقول بحرارة: «يمكنني استعادته متى أشاء».

ـ ولكن هل يستحق ذلك؟.

أجابت مكابرة: «نعم».

ـ لابأس، هيا بنا.

ثم قادها إلى حيث كان دايڤيد وبيني يتحدثان، وبظرف جذب بيني بعيداً، تاركاً دايڤيد لجنيفر فأخذ نفساً عميقاً وسألها بأدب: كيف حالك؟.

كيف حالها؟ وتاهت بها الذكريات... كانت متلهفة إلى اتصال هاتفي منه، وتحطم قلبها من طول الانتظار... كم بكت وحدها وكم حاولت أن تخفي دموعها عن الناس من دون أن تفهم ما هي غلطتها!

ومع ذلك أجابت ضاحكة: «حسناً، إنك تعلم كيف هي الأعمال في هذا الوقت من العام. فالملفات تتكدس عليّ. أظن الأمر نفسه يحدث معك».

أخذ يبحث عن النظرة القديمة في عينيها، قبل أن يجيب موافقاً: «هذا صحيح، فقد كنت مشغولاً تماماً. وفي الواقع، كنت مسافراً معظم الأسبوعين الماضيين لهذا ما كنت لتجديني لو اتصلت بي».

ردت بتوتر: «كلا، لم أتصل في الحقيقة».

ـ طبعاً لم تتصلي... لم أعنِ... حسناً، على كل حال...

أنهى كلامه وهو يهز كتفيه بعجز ثم ابتسم، أما هي فحبست أنفاسها وقد اجتاحتها هذه الابتسامة التي أضاءت وجهه الوسيم.

اندفعت تقول وهي تمدّ يدها لها: «دايڤيد».

سرعان ما يهتف باسمها هو الآخر ويتلاشى الجفاء بينهما.

ـ لا تضيعي الوقت بالحديث يا عزيزتي، السهرة ما زالت في أولها.

لكن الصوت صدر عن ستيڤن الذي ظهر بجانبها من حيث لا تعلم. وقبل أن تعترض، كان قد سحبها إلى حلبة الرقص وهو يحتضنها بين ذراعيه.

قالت ساخطة: لماذا فعلت هذا؟ كان دايڤيد على وشك أن... ما تظن أنك تفعل؟.

ـ أنقذك من اقتراف غلطة شنيعة. كنت أنظر إليكما ولم يكن هو على وشك أن... بل أنت التي كنت على وشك أن ترتمي عند قدميه.

ـ ليس هذا من شأنك... أعني ما كنت لأفعل هذا.

ـ ولكن وجهك قال لي شيئاً آخر. هل هذا كل ما يحتاجه الأمر؟ أن يمنحك تلك الابتسامة الصبيانية الصغيرة، فإذا بعقل المرأة يطير؟.

ـ دعني أذهب حالاً. لم تعد صالحاً لشيء.

وأخذت تكافح للتخلص منه، لكنه احتضنها بشدة أكبر وهو يقول: «كان عليك أن تشكريني أيتها المرأة الجاحدة! لو إنك انهرت عند أول اختبار لما استعدت علاقتك به أبداً».

ـ ماذا تعني بكلمة اختبار؟.

ـ هذا أول لقاء يجمعكما بعد الخصام، فكنت أنت أول من تهافت. أراهن على أنه كان يتحدث عن نفسه. ليس عنك، أو عنكما معاً بل عن نفسه فقط. إنه يبدو من أولئك المعتوهين الذين يظنون أن كل الطرق تؤدي إليهم.

فضلت الموت على الاعتراف بأنه على صواب. لكن قلبها يتلوّى ألماً وخيبةً، فدايڤيد لم يكن كما توقعت وجرحت كرامتها بعد أن شهد ستيڤن على ذلك.

ـ لماذا تقع امرأة مثلك في غرام رجل ضعيف؟.

ـ ليس ضعيفاً. لكنه ليس متغطرساً، إذا كان هذا ما تعنيه. بعض الرجال لا يشعرون بالحاجة للغطرسة، المسألة تتعلق بالثقة بالنفس.

ـ وماذا فعلت لكي تدمّري ثقته بنفسه؟.

قالت بحدة: «هذا كلام حقير!»

ـ وأقرب إلى الحقيقة!.

وفجأة، شعرت بأنها نالت هذه الليلة أكثر مما تتحمل، فقالت: أظن وقت الرحيل قد حان.

ـ حسناً، امسكي بذراعي وسنخرج بعظمة. ارفعي رأسك!.

قادت جينيڤر السيارة بصمت وقطعت قرابة الميل قبل أن تسأله: إلى أين تريدني أن أوصلك؟.

ـ أنزليني فقط عند محطة الباص التالية.

ـ أنا مستعدة لأخذك إلى بيتك.

ـ شكراً، لكن الباص سيقوم بالمهمة.

فقالت بصبر: «لا حاجة بك للمعاناة. أخبرني بمكان إقامتك».

ـ هل علينا أن ننهي تعارفنا بالجدل؟.

فقالت باكتئاب: «وما أهمية ذلك؟ فالسهرة كلها عبارة عن كارثة».

ـ ليس السهرة كلها. فقد مرت لحظات من المتعة.

ذعرت وهي تشعر بوجنتيها تلتهبان للذكرى. ولتتأكد من أنه لن يلاحظ ذلك، قالت: إنسها، يا سيد ليري. فقد سبق ونسيتها أنا.

ـ هذا ما لا أصدقه.

ـ هذه الأمور تحدث، فينجرف الناس معها. لكنها لا تعني شيئاً.

ـ هل تتصرفين هكذا مع كل رجل تلتقينه؟ عار عليك.

انتبهت إلى السخرية في صوته، فجاهدت لتصون كرامتها.

ـ تعلم ما أعني. لقد انتهت الليلة ولن نجتمع مرة أخرى أبداً.

ـ أتظنين؟.

ـ نعم، ما دمت أستطيع أن أمنع ذلك.

ـ قد يرى الرجل المتهور في ذلك تحدياً له.

ـ لا تجرب.

ـ أراهن بعناق آخر على أنك ستتصلين بي قبل نهاية الأسبوع.

ـ لقد وصلنا إلى محطة الباص، تصبح على خير يا سيد ليري.

وعندما وقفت عند المنعطف، أخذ ستيفن ينزع أزرار كميّ القميص الذهبيين: «الأفضل أن تستعيدي هذه».

لم تشأ ذلك فهي لن تهديهما إلى دايفيد بعد الآن. فردت بمزيج من الضعف والخيبة: لا حاجة بي إليها. احتفظ بها لتعزيك بخسارتك للرهان. ستجلب لك ثمناً جيداً.

كان ستيفن قد فتح الباب الآن، فقال لها ببرودة: بل أحتفظ بها كتذكار منك.

ـ أفضل ألاّ تفعل هذا. أريد أن أنسى كل شيء عن هذه الليلة.

قالت ذلك وهي تتمنى لو يذهب ويتركها لأحزانها، فأجابها بحزم وهو يضع يده خلف رأسها ويشدها إليه: لكنني لا أريدك أن تنسيني.

وقبل أن تستطيع التفكير أطبق بذراعيه عليها يمنعها من كل حركة.

همست بصوت مبحوح: «كفى».

ـ لا أريد أن أنتهي، وكذلك أنت.

حاولت أن تنكر هذا، أن ترفض سيطرته التي اعتبرها أمراً مسلّماً... لكن قلبها عاد يخفق بشدة وضاعت منها الكلمات وقبل أن تنبس ببنت شفة أخرسها بعناق آخر.

لكن شيئاً ما أوقفه عند حده. شعرت به يتوتر، ثم يبتعد.

ـ أيتها المرأة المجنونة. كيف تتجاوبين هكذا مع رجل مجهول؟.

فصرخت به.

ـ ما كان لهذا أن يحدث... إذ ليس مفروضاً منك...

فقال بغضب: «تعنين أنه لا يجدر بالمرافق المستأجر أن يقترب منك، أليس كذلك؟».

صرخت بصوت مرتجف: اخرج من السيارة، اخرج حالاً. هل تسمع؟.

ـ نعم، ربما من الأفضل أن أهرب ما دمنا سالمين.

ثم خرج وأغلق الباب، وظل ينظر إليها من خلال النافذة المفتوحة ثم تابع: «إلى أن نتقابل مرة أخرى».

ـ لن نتقابل أبداً.

فرد بخشونة: لا تكوني حمقاء. إنك أكثر حكمة من ذلك.

لم تملك سوى طريقة واحدة لإسكاته، فداست على البنزين وانطلقت بالسيارة، وعندما نظرت من المرآة الخلفية رأته ما زال واقفاً هناك ينظر إليها والعبوس يكسو وجهه.

***

٣ ـ يوم وُلد ستيڤن

في الصباح التالي، وصلت جينيڤر إلى مكتبها متأخرة إذ لم تنم إلا بعد قضائها الليل تتقلب على فراشها أرقة. شعرت بالذعر وهي تفكر كيف استسلمت لجاذبية رجل لا تكاد تعرفه. ثم غفت أخيراً لتستيقظ وفي ذهنها حقيقة واحدة: ألا ترى ستيڤن ليرى مجدّداً إذ يمكن لهذا الرجل أن ينسيها نفسها ومن تكون.

إنها حفيدة «بارني نورثون» الناجحة الرائعة الجمال وهي قرة عينه. لكنها أيضاً تلك التي تؤوي الحيوانات الشريرة الضالة... لماذا؟ لأنها تشعر أنها هي نفسها أشبه بالضالة الشريدة. ولولا هذه الحيوانات لشعرت بحياتها فارغة موحشة. وها هي الآن امرأة عاملة في القمة وقد سئمت العمل. في أعماقها ما تزال تلك الصبية ذات العشر سنوات التي هجرها أبوها من دون أن يلقي عليها نظرة واحدة، وكم كانت شغوفةً به!.

فكرت في دايڤيد الذي أحبت فيه الرقة واللطف، بينما لم يعجب به أحد من أسرتها. قال جدها إنه مملّ، أما تريڤور فكان أكثر جرأة في تفسير ذلك: «لن يشعل أبداً نهر التايمس».

لكنها لم ترد رجلاً يشعل نهر التايمس، بل إنساناً تستطيع أن تعتمد على ثباته. وقد ناسبها دايڤيد من هذه الجهة تماماً. كان كذلك، على الأقل، إلى حين خلافهما... لكنه ذنبها أيضاً كما أكّدت لنفسها، فقد جرحت كرامته بطريقتها الخرقاء في تقديم المساعدة. وعندما يتراضيان ستكون أكثر حذراً.

دايڤيد رجلٌ مسالمٌ جديرٌ بالثقة، صحيح أنها تمنّت أحياناً لو كان أكثر

حزماً، خاصة حين يمس ضعفه قلبها. لكنها تحمل في أعماقها قوة هادئة. وعلى قدر ما تحتاج إلى رجل تعتمد عليه، فهي أيضاً بحاجةٍ إلى رجل يعتمد عليها، إذ لا يمكنها أن تتخلى عن أيّ شخص بحاجةٍ إلى حمايتها. وهكذا لم يكن على دايڤيد سوى أن يبتسم قائلاً: ماذا كنت لأفعل من دونك؟ حتى تذوب أمامه حباً وحناناً، ولهذا أحبت دايڤيد بكل جوارحها. ولهذا أيضاً لن تقع في حب ستيڤن على الإطلاق، فهو لا يملك ما ينبيء عن ضعف في شخصيته.

أما ما حدث بينهما فشعور مختلفٌ... كان أشبه بتحذير من حواسها لئلا تقع بين ذراعيّ الرجل غير المناسب.

وصلت إلى المكتب باندفاع ونشاط. وبالكاد لاحظت نظرات موظفيها ترمقها بفضول. كالعادة، استهلت مهماتها بتفقد أسعار أسهم الشركة. وما إن أنجزت هذه المهمة حتى جلست تحدق في شاشة الكمبيوتر وهي تقطب جبينها.

ـ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. لماذا ترتفع أسعارنا إلى هذا الحد منذ أمس؟.

لكن الأرقام نفسها عادت إلى الظهور، وفي الدقيقة التالية رن الهاتف بجانبها وإذا بتريڤور يقول لها: الأفضل أن تأتي إلى هنا وتعلميني بما يجري.

اجتازت جينيڤر الممر إلى مكتبه وقد تملكتها الحيرة ثم قالت له وهي تغلق الباب خلفها: لم أفهم أياً من هذا.

ـ إنني أتحدث عنك وعن شركة «مشاريع تشارتريز».

ـ ليست لي أية علاقة مع «شركة مشاريع تشارتريز».

فأجابها تريڤور ساخراً: آه، كلا؟ كما أنك لم تكوني مع مديرها الليلة الماضية، كما أظن.

ـ إنك تعلم أني كنت الليلة الماضية.. في الحفلة مع مايك هاركر... كلا، انتظر. قال إن اسمه الحقيقي هو «ستيڤن ليري».

ـ إذاً أخبرك بذلك؛ ولم تسمعي صفارات الإنذار؟.

وألقى تريفور صحيفة على مكتبه، فاتسعت عينا جينيفر وهي ترى صورتها وستيفن يرقصان. أما التعليق تحت الصورة فيصف تفاصيل الحفلة، كما يتحدث عنها وعن «ستيفن ليري» مدير شركة «مشاريع تشارتيريز»، ومالك أكبر قسم من الأسهم ومهندس نجاحها الرئيسي.

قال تريفور: يظن الناس أننا نتعامل مع شركة «تشارتريز»، ولهذا ترتفع أسهمنا بشكل سريع...

قالت بذهن شارد: «لا أفهم هذا. لقد أخبرتني أن «مايك هاركر» هو ممثل فاشل».

فرد أخوها وهو يصرف بأسنانه: لكن هذا ليس هاركر.

ـ حسناً، إنه الرجل الذي ظهر على عتبة بابي. هذا... أنا لا أفهم. لقد رقصت مع «دزينة» رجال.

ـ مثل هذا؟.

ووضع تريفور إصبعه على صورة أخرى فتنفست جينيفر بحدة وقد فهمت ما يعني، لقد التقطت الصورة عندما عانقها ستيفن، ولم يترك استسلامها له شكاً في الأمر. فهذه ليست مجرد رقصة أخرى.

أخذت تتأمل الصورة بذعر. كيف ذابت بين ذراعيه بتلك الطريقة الخليعة؟ وهو؟ هل فقد رشده هو أيضاً؟ أم تراه يضحك لأنه نجح في خداعه؟ وفيما بعد.. لكنها رفضت أن تتذكر ما حدث فيما بعد.

قالت عابسة: «أظنني سأتحدث إلى السيد هاركر.. أو ليري... أو مهما يكن اسمه».

اتصلت بشركة «مشاريع تشارتيريز»، فردت عليها السكرتيرة، وبسرعة أمرتها جينيفر: «ابلغي من فضلك السيد ليري أنني لا أدري ما هي لعبته، لكنني سأعرفها حتماً».

* * *

وصل ستيفن إلى مكتبه فوجد الصحيفة ملقاة على طاولته، وموظفيه مغتبطين لهذا الانقلاب المفاجيء. كانوا يعلمون أن ستيفن يفاوض منذ مدة

لشراء شركة «كيركسن ديبوتز» الواقعة في نفس منطقة «نورثون». لكن كيركسن ظل يطلب ثمناً مرتفعاً للغاية. وهكذا افترض الكل الآن أن ستيفن يقوم بلعبة خفية.

أمعن النظر في الصورة، وتأمل ثوب الساتان وهو يلتصق باغراء بجسد جينيفر. أما هي فكانت ترفع بصرها إليه، وكأن مرافقها هو الرجل الوحيد في العالم.

تريده أن يعتقد أن هذا كله مجرد تمثيل، وذلك من أجل رجل آخر، وقد كاد يُخدع تقريباً. حتى آخر لحظة في السهرة... بإمكانها أن تنكر قدر ما تشاء فهو يعلم الحقيقة الآن.

فتحت سكرتيرته الباب. أليس امرأة كفؤ في منتصف العمر... قالت: جايمس كيركسون هنا.

أطل جايمس كيركسون وهو يتفوه بكلمات مثل التراضي وإعادة التفكير، أما ستيفن فقد أخفى ملامحه خلف ستار من الجمود ليغطي شعوره بالفوز. بعد دقائق ستصبح شركة «كيركسون ديبوتز» ملكه، وستكون هذه أنجح صفقة له. لكن الهاتف قطع عليه حبل أفكاره وإذا بصوت أليس يقول: إنها الآنسة «نورثون». إنها غاضبة جداً وهي في طريقها إلينا.

ألقى ستيفن نظرة على كيركسون، ثم اتخذ قراراً مفاجئاً: عندما تصل قولي لها إنني مجنون بحبها.

ـ حسن جداً يا سيدي.

بعد ربع ساعة بالضبط، انفتح باب أليس ودخلت جينيفر وهي تقول بحزم: «أريد رؤية ستيفن ليري».

ـ هذا غير ممكن مع الأسف. ألا تتفضلين بالجلوس؟.

ـ وقتي لا يسمح لي بالجلوس. إن رئيسك رجل متستر مراوغ...

ـ لا بد أنك الآنسة نورثون؟.

ـ نعم، هذا صحيح.

فقالت أليس بجمود: في هذه الحالة، السيد ليري يحبك حتى الجنون.

تسمرت جينيڤر في مكانها وأخذ رأسها يدور وبلحظةٍ واحدةٍ توهج العالم واندفعت النجوم تتسابق في الفضاء. لكن سرعان ما عادت حواسها إلى الصفاء وأدركت أن ستيڤن يهدف إلى خدعة ما... سألتها وهي تلوي شفتيها: هل بوظفك عنده لكي تقولي مثل هذه الأشياء؟.

ـ نعم، في مناسبة كهذه.

ـ مهما بلغ ما يدفعه لك، فهو غير كاف.

ـ أوافقك على هذا. أتريدين قهوة؟.

ـ ما أريده منك هو رأس ستيڤن ليري على طبق. لكن أفضّل أن أحضر ذلك بنفسي.

تحركت السكرتيرة نحو الباب، لكن جينيڤر كانت أسرع منها، إذ اندفعت إلى مكتب ستيڤن وهي تصرخ: كيف تجرؤ على إخبار الصحافة كل ذلك الكلام الفارغ عنا بينما تعلم جيداً...

لم تقل أكثر من هذا، لأن ستيڤن ترك كرسيه مندفعاً نحوها ليطبق عليها ثم ضمها إليه ليمنعها من الكلام بينما التفت ذراعاه حولها كالفولاذ.

أخذت جينيڤر تقاومه ساخطة، وقد زادت من ثورتها ثم أبعدها عنه ليقول: «المتعة مع العمل، يا حبيبتي».

ثم أخفض صوته متابعاً بسرعة: ردي عناقي، أرجوك.

فأجابت: «ولا بعد مليون سنة».

ما إن نطقت بهذا حتى عاد يسكتها بعناق آخر. دار العالم حولها فعجزت عن التفكير أو القيام بأية حركة... كانت تلك الأحاسيس في داخلها تفجّر فيها ما هو أقوى من الغضب.

لكنها لحظة وانطفأت، استعادت بعدها جينيڤر رشدها. فابتعدت عنه وقلبها يخفق بعنف. نظرت إلى وجهه متوقعة أن ترى في عينيه بريق الفوز، لكنها ذهلت وهي تلمح صدى مشاعرها هي. كان ستيڤن يتنفس بصعوبة بينما عيناه تلمعان بوميض غريب... قال بصوت مبحوح: «جينيڤر... دعيني أقدمك إلى... أين هو؟».

أجابت أليس من عند العتبة: تسلل السيد كيركسون خارجاً أثناء انشغالكما.

قال ستيڤن ثائراً وهو يترك جينيڤر بسرعة لا تليق بالمحبين: تباً لذلك. كان على وشك الخضوع.

ـ أتجرؤ على لومي؟.

ـ لو أنك لم تدخلي علينا لاشتريت شركة كيركسون بثمن بخس.

ـ شركة «كيركسون ديبوتز»؟ إذا فهذا هدفك من مرافقتي الليلة الماضية؟.

ـ كلا، أبداً. كان الأمر مجرد مصادفة.

ـ هذا غير صحيح.

ـ لا تكذبيني. عليك أن تجيبيني عن الكثير.

ـ أنا...؟.

ـ لقد أفسدت عليّ صفقة كانت ستجلب إلى الشركة مبلغاً كبيراً.

ـ صفقة ما كانت لتحصل لو أنك لم تخدعني.

قال وهو يصرف بأسنانه: أنا لم أخدعك. إن مايك هاركر صديق بدا لي نصف ميت من الأنفلونزا، وهكذا أخذت مكانه، هذا كل شيء.

فتحت أليس الباب مرة أخرى: مخابرة تليفونية للآنسة نورثون، حوّلتها إلى المكتب.

رفعت جينيڤر السماعة وقد تملكتها الحيرة، فوجدت نفسها تتحدث إلى أخيها وهو يقول متذمراً: لقد اندفعت إلى الخارج من دون تفكير... اتصل بنا الجد، لقد طار فوق السحاب من شدة الفرح وهو يرى ارتفاع سعر الأسهم.

ـ آه، كلا!.

قالت ذلك بصوت منخفض فعند إنشاء الشركة كان حلم جدها أن يرتفع سعر الأسهم، وها قد أبصر حلمه النور.

ـ طلب منك أن تدعي ستيڤن ليري إلى العشاء.

فقالت لستيفن: «انظر ماذا فعلت! جدي يدعوك للعشاء».

ـ حسن جداً، لقد قبلت الدعوة.

ـ وهذه القصة الجنونية، أين ستنتهي؟.

فقال بخبث: «من يعلم؟ ولكن من الممتع أن نعرف».

ثم تناول السماعة من يدها وأخذ يتحدث: يا سيد نورثون، يسرني قبول دعوتك.

رفعت جينيفر سماعة التليفون الثانية، فسمعت تريفور يقول: «لقد دعانا جدي جميعاً إلى بيته بعد غد. وهو يرجو ألا تمانع في أن تكون زائداً عن العدد».

أجاب ستيفن: «يمكنني أن أصحب أختي لكي يصبح العدد مزدوجاً ولتقوم بحمايتي أيضاً».

ـ من الطبيعي أن يزداد سرورنا بأختك، يا سيد ليري. هذا إذا كنت لا تظنها ستسأم.

ـ «ماود» فتاة جادة تماماً، وهي تحب اكتساب المال. أنا واثق من أنكما ستنسجمان تماماً.

ـ سأترك لجينيفر أن ترتب الأمور معك.

وأقفل الخط.

نظر إلى عيني جينيفر الساخطتين، وقال: إنني متشوّق للتعرف إلى أسرتك... سأخبر أختي.

قالت جينيفر: «إن جدي يحب ابتداء المساء في الساعة الثامنة».

ـ سنكون هناك عند الثامنة. وبالمناسبة، ألم تلاحظي أنني كسبت الرهان؟ راهنتك على أنك ستتصلين بي قبل نهاية الأسبوع.

ـ لكنك علمت أن هذا سيحدث. هذا خداع.

ـ ادفعي الرهان.

ـ كلا على الإطلاق.

ـ لا أدري هل تعلم الصحافة كيف يفي آل نورثون بعهودهم.

قال ستيفن ذلك بتأمل وكأنه يحدث نفسه.

تنفست بعمق. كانت تعلم أن إنقاذ كرامتها محتم عليها، وعلى كل حال، المسألة لا تتعدى كونها وفاء بعهد.

أخيراً قالت وهي تحاول أن تبدو هادئة.

ـ حسناً جداً. يمكنك أن تأخذ قبلة الرهان على ألا يتعدى ذلك الخمس ثوانٍ.

فقال: آه، لا أظنها ستأخذ كل هذا الوقت.

وطبع على وجنتها قبلة سريعة ثم تابع: «والآن، يمكنك أن تصفعيني إذا شئت».

ـ ما أود أن أفعله فعلاً هو خارج حدود التهذيب عندما أفكر في تصرفاتك الليلة الماضية، عندما جعلتني أظنك مجرد ممثل فقير... ثم أخذت الأزرار الثمينة تحت ستار ادعائك ذاك... عليك أن تعيدها إليّ.

ـ هذا غير ممكن، فقد أعطيتها لمايك هاركر.

فقالت بصعوبة: «لقد حان وقت ذهابي... سأراك أثناء حفلة العشاء».

ـ وأنا متشوّق لذلك.

* * *

هذه المرة كان الحظ وحده قد أسعف ستيفن حتى يمرّ بمنزل جينيفر في المساء التالي. فقد كان يزور أحد زبائنه المهمين وإلا لما صادف وجوده في تلك الناحية أبداً.

خطر له أن ينزل لزيارتها. سيكون ممتعاً أن يراها على طبيعتها، والأحسن من ذلك أن يفاجئها. وبما أنه كان صادقاً مع نفسه، فقد اعترف بأنه سيسر بهذه الزيارة.

لكن الحظ انقلب على الساحر كما يقال. لقد توقع شتى أنواع الترحيب إلا ذاك الذي حصل عليه فما إن رن جرس الباب حتى سمع وقع أقدام تتسارع. وإذا بالباب ينفتح وتبدو جينيفر وهي تقف على العتبة وتتكلم

بسرعة وقد بدا عليها الارتياح: الحمد لله أنك هنا. آه، رباه، أنت وحدك!

كانت النساء، عادة، تستقبل ستيفن بطرق مختلفة تتراوح: ما بين (يا حبيبي، ما أروع هذا!) إلى (كيف تجرؤ على أن تريني وجهك مرة أخرى؟)... ولكن (رباه، أنت وحدك)! هذا جديدة عليه.

- نعم، هذا أنا. أظنك تتوقعين سواي.

ومن دون أن تجيبه، مرّت بجانبه ثم نزلت إلى ممرّ الحديقة ومنه إلى الشارع. وعندما لم تر أحداً عادت أدراجها محبطة.

لم يكد ستيفن يعرفها. فقد كانت تلبس بنطلون جينز قديماً وقميصاً لا شكل له غطى جسمها ما عدا ساقيها، فلديها أطول ساقين رآهما لامرأة.

كان وجهها خالياً من الزينة وشعرها مسترسلاً وكأنها كانت تنكشه سخطاً وقلقاً. بدت مختلفة تماماً عن تلك المرأة الأنيقة الرائعة التي عرفها في الحفلة، أو ذلك الملاك المنتقم الذي اقتحم عليه مكتبه.

قالت نائحة وهي تعود إلى بيتها وتغلق الباب خلفها: «هذا فظيع».

ردّ بشيء من الضيق: شكراً. آسف لكوني مصيبة حلت عليك.

حاولت أن ترجع شعرها إلى الخلف لكنه عاد فغطى جبهتها: ليس ذنبك.

- من كنت تتمنين أن أكون؟.

فقالت بحدة: البيطري... «مخالب» على وشك الولادة.

- «مخالب»...؟.

- إنها قطتي. ليست قطتي بالضبط، وإنما جاءت إلى بيتي تبحث عن مأوى، ثم استقرت فيه، ولم أكن أعلم أنها حبلى. مؤخراً أخذت تتصرف بشكل غريب، وفجأة أدركت مبلغ بدانتها...

- ماذا تعنين بقولك: تتصرف بشكل غريب؟.

- أخذت تحفر حفراً في الحديقة وتجلس فيها. ثم إنها تلهث وكأنها تتألم.

- أين هي؟.

- استطعت أن أعيدها إلى صندوقها في الغرفة الأمامية.

تابع إشارة اصبعها. ثم توجه إلى حيث كانت القطة، قابعة في صندوق من الكرتون وحولها الوسائد. أخذت «مخالب» تنظر إليه بلهفة، فركع على الأرض بجانبها وأخذ يتحسس بطنها.

- نعم، إنها حبلى بأربعة على الأقل.

سألته برجاء: «هل تعرف شيئاً عن القطط؟».

- في صغري، كان لجارتنا قطة تلد كل ستة أشهر. كانت تأتي دوماً إلى حديقتنا لكي تلد. وهكذا اعتدت عليها تماماً. لطالما فضلت الجرائد.

- هذا حسن.

هرعت جينيفر إلى المطبخ ثم عادت برزمة من الجرائد، أما ستيفن فوضع القطة بين ذراعي جينيفر. ورفع الوسائد من الصندوق، ثم أخذ يبطنه بالصحف. وعندما عادت «مخالب» إلى الصندوق، أخذت تتشمم حولها، ثم استقرت، وبدا أنها تنظر إلى ستيفن بثقة.

سألته جينيفر بابتسامة مرتجفة.

- إنك تعلم بما تفكر القطة. الحمد لله لوجود شخص خبير بالهررة!.

- ما دامت هي راضية. لكنني سأكون أكثر سروراً لو أحضرت بيطرياً.

- من المفروض أن يكون هنا، وقد ظننتك هو. هل لك أن ترعاها ريثما أتصل به وأتحقق من سبب تأخره؟.

ثم توارت قبل أن ينبس بكلمة.

قال ستيفن يحدث القطة: «إنها مجنونة. كيف لم تلحظ أنك حامل؟ ها إنك في حالة صعبة».

كانت القطة قد عادت تتألم، وأخذت تلهث بسرعة.

صاح ستيفن: «أخبريهم بأن يسرعوا».

فعادت إليه قائلة: يجهل الجميع مكان البيطري. لقد غادر عيادته منذ نصف ساعة. عليه إذاً أن يكون هنا الآن، لكن يبدو أنه ذهب مع الريح... ما هذا؟ هل تأكل «مخالب» سجقة؟.

فأجاب: لا. إنها قطيطة أنجبتها منذ دقيقة. وهي تلحسها لكي تتمكن

من التنفس جيداً.

كانت القطة تلعق وليدتها بلسان وردي، أما القطيطة فأخذت تتلوّى وتموء بصوت ضئيل. وما إن أبصرت جنيفر هذا المنظر حتى هبطت على ركبتها وهي تبتسم مبتهجة. وبتردد مدّت يدها لتلامس «مخالب».

نهض ستيڤن بهدوء ودخل المطبخ، ثم عاد بعد دقائق بإبريق القهوة. كانت جينيڤر ما تزال مستغرقة في التأمل فلم تنتبه له فيما وقف هو للحظة يتفرج على تلك الإشراقة الخفيفة التي زينت وجهها المبتهج.

قال لها: «يستحسن أن نتركها لحظة. فمهمتها لم تنته بعد. إنها بحاجة إلى الهدوء والأمان».

ثم ساعدها لتقف على قدميها وجذب كرسيين يستران الصندوق وهو يقول: «هذا يمنحها شعوراً بالانفراد».

سألته وهي تنظر إلى القهوة: «متى أعددت هذه؟».

ـ أخذت أفتش في المطبخ عبثاً. لم يكن الأمر سهلاً. وأخيراً اكتشفت أن الشاي في وعاء السكر، والسكر في علبة الثوم والقهوة في وعاء مكتوب عليه (شاي). أما العثور على بسكويت في علبة البسكويت فصعب للغاية، لكنني واجهت الأمر بنجاح.

سكب لها القهوة، ثم قرب السكر منها بلباقة مدهشة. وعندما رآها تنظر إليه، قال: إنني مؤهل للخدمة المنزلية. لقد علمتني أمي هذا.

ـ هذا آخر ما توقعته منك.

ـ إن الحكم على المظاهر عادةٌ سيئة للغاية. وأظنك تعلمين هذا كما أعلمه، فلم أتوقع أن أراك على هذا الشكل قط.

ـ ماذا كنت تتوقع أن ترى إذاً؟ أعني لماذا أنت هنا؟.

ـ لست واثقاً تماماً. مررت بزبون خارج المدينة وعدت أدراجي من هذا الاتجاه. وهكذا فكرت في زيارتك، وإذا بي أتلقى مفاجأة حياتي.

رآها تتلصص بالنظر حولها، فقال بحزم: دعيها. ستمضي نصف ساعة قبل ولادة القطيطة الأخرى. وإلى ذلك الحين يكون البيطري قد وصل.

لكن نصف الساعة انقضت من دون أي أثر للبيطري، وفي ذلك الوقت ظهرت قطيطة أخرى. تحسس ستيڤن بطن القطة برفق، ثم قال: هناك اثنتان أخريتان، لكن الأمور تسير على ما يرام.

ذهبت إلى المطبخ واستعدت للعمل، بينما أخذ ستيڤن ينظر في أنحاء البيت وهو يحاول أن يوفق بين هذه الزيارة وزيارته الماضية. لقد جاء إلى هنا للمرة الأولى ليأخذها إلى حفلة، وعند ذاك احتار إذ وجدها تعيش في منزل من طابق واحد... صعبٌ أن يتخيل هذه المخلوقة الرشيقة صاحبة الثوب المغري إلا في شقة صغيرة أنيقة، ففي طبيعتها حنكة تناقض هذه الڤيلا المريحة. سألها وهو يقف بجانب باب المطبخ: منذ متى تسكنين هنا؟.

رفعت رأسها من داخل الخزانة: «اشتريته منذ سنتين».

ـ هل كنت تسكنين فيه مع أحد؟.

ـ ماذا تقول؟.

ـ أعني من الغريب أن تسكن امرأة وحدها في ڤيلا.

بدت عليها الدهشة: أحقاً؟ لقد أحببت هذا المكان من أول نظرة. وشعرت أن عليّ أن أعيش هنا.

وفيما هي تقطع الفلفل الأخضر إلى شرائح، أخذ ستيڤن يتأملها لبرهة ثم ما لبث أن عاد إلى الغرفة. سمعته جينيڤر يتمتم محدثاً «مخالب» فأدركت أنها لن تفهم هذا الرجل بسهولة.

أخذت في اليومين الأخيرين تتحرى عن شخصيته فما زادتها النتيجة إلا حيرة. لقد أنشأ سلسلة من الحوانيت الصغيرة قبل أن يبيعها ثم ينضم إلى شركة «مشاريع تشارتريز» منذ عشر سنوات. وكانت «تشارتريز» شركة ضخمة غير ناجحة، فقلبها رأساً على عقب... باع بعض أقسامها وجدّد فيها ومن ثم ضاعف من إنتاجها، واستنتجت جينيڤر أنه رجل مدمن على العمل، صلب، حاذق، طموح... تحدثت إحدى الصحف عن تعدد علاقاته النسائية وأشارت إلى أن أيّ منها لم تدم وقتاً طويلاً. وعدا ذلك، لم يشر أحد إلى حياته الخاصة ويبدو أن معاملاته التجارية هي غرامه الوحيد.

ولكن كيف يتفق ذلك مع رجل تحوّل هذه الليلة إلى قابلة لتوليد القطط؟ وأخذ الفضول يلذعها . . .

وكذلك ازداد فضول ستيڤن، فكلما ازدادت معرفته بها قلّ ما يعرفه عنها. على رف المدفأة أبصر صورة لرجل كبير السن ذي وجه نحيل. وإلى جانبها صورة صبي وصبية، والاثنان في سن المراهقة. ثم صورة لامرأة في الثلاثينات تشبه جينيڤر.

ـ تلك هي صورة أمي.

قالت جينيڤر ذلك وهي تدخل بأدوات المائدة ثم ترتبها على الطاولة.

ـ وأين أبوك؟.

ـ ذلك الرجل العجوز على آخر الرف هو جدي. وستتعرف إليه مساء غد.

ـ تكهنت بأنه هو. ماذا عن أبيك؟.

ـ وهذه صورتي مع تريڤور عندما كنا صبيين.

ـ أين. . . . ؟.

لكن جينيڤر عادت إلى المطبخ. وعندما أحضرت الطعام بعد دقائق، كان ستيڤن قد أطفأ كل الأنوار ما عدا مصباح المائدة. ثم ركع بجانب القطة متمتماً: هيا، يا فتاتي الماهرة. . . قد أوشكت على الانتهاء.

ما إن سمع خطوات جينيڤر حتى رفع بصره.

ـ في العتمة يزداد سرورها. هل يمكنك أن تهتدي إلى طريقك؟.

ـ تقريباً، لا تقلق.

وضعت الخبز والسلطة على المائدة، وذهبت تحضر «البفتيك». بينما جلس ستيڤن من بعيد ليراقب القطة.

رن جرس الهاتف، فاختطفت جينيڤر السماعة وإذا بالبيطري يقول: أنا آسف جداً. لقد تعطلت سيارتي. . . لن أستطيع الحضور قبل ساعة على الأقل.

ـ لا تهتم، القطة في أيدٍ أمينة.

فقال ستيڤن ساخراً: «شكراً لهذه الثقة».

سألته بلهفة: «إنها بخير، أليس كذلك؟».

ـ بحالة ممتازة، حسب رأيي. إنك تهتمين لها حقاً، أليس كذلك؟.

ـ حسناً، إنها حيوان صغير لطيف.

ـ وهل هي رفيقتك الوحيدة في هذا البيت؟.

ـ سبق وأخبرتك أنني أحب هذا المكان.

ـ هل ستقيمان، أنت ودايڤيد، هنا حين تتزوجان؟.

ـ أظن من الأفضل أن نترك دايڤيد جانباً.

ـ ألم يتصل بك بعد تلك الليلة؟.

ـ قلت إن هذا يكفي.

قالت ذلك والتحذير في صوتها.

ـ أظنه لم يتصل.

رفضت جينيڤر الإجابة. لا تريد الشجار معه، خاصة لأجل القطة. لكنه ضرب على الوتر الحساس فهي حقاً لم تسمع شيئاً من دايڤيد.

قال بلطف: «هل يمكنني الحصول على مزيد من السلطة؟».

أجابت بجمود: «بكل تأكيد».

ثم تابع وهو يتحداها بابتسامة خبيثة: استمري. نفّسي عن مشاعرك. أفرغيها علي.

فقالت بتكلف: «كل ما أشعر به نحوك حالياً هو عرفان الجميل لأجل «مخالب».

ـ لأجل «مخالب»؟ إنك تحبين حقاً تلك القطة ما دمت تصفحين عني لذكرى دايڤيد.

ـ أيمكننا تغيير الموضوع الآن؟.

ـ لابأس. أخبريني لماذا لا تضعين صورة لوالدك؟.

ـ لأنه هجرنا عندما كنت في العاشرة من عمري، ولم نسمع خبراً منه منذ ذلك الحين.

ـ آه، أنا آسف، صحيح أنه ليس من شأني، لكني لا أفهم. أظنني سمعت باسم «بارني نورثون»، لكنني لم أسمع أن له ابناً قط.

ـ ليس له ابن بل ابنة وحيدة هي أمي.

ـ ولماذا تحملين اسم «نورثون» إذن؟.

ـ كان اسمي العائلي «ويزلي»، ولكن عندما ماتت أمي، حضننا جدي ومنحنا اسمه.

ـ هل استشاركما في ذلك أولاً؟.

ـ كلا. بل قام بذلك من نفسه.

ـ هل ساءكما ذلك؟.

ـ كلا، أبداً. خذ مزيداً من القهوة.

غيرت الموضوع عمداً. اكتشفت أنها الآن تشعر بمودة نحو ستيڤن أكثر مما تتصور، لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تصف له شعورها عندما فقدت هويتها.

كانت «جينيڤر نورثون» حفيدة «بارني نورثون». وطالما استمتعت بحبه لها. أما «جينيڤر ويزلي» فهي تلك التي ظنت نفسها حبيبة أبيها، لكنه ما لبث أن نبذها ورحل دون عودة. كم من الليالي أمضتها تبكي تلك الخيانة التي لم تفهم سببها، ذلك الجرح الذي لم يندمل بعد.

أنبأتها ساعة الجدار بأن موعد اتصال دايڤيد المعتاد قد حان ولكنها أيام رحلت... وفجأةً صدح الهاتف بالرنين.

قفزت عن كرسيها واندفعت إلى التليفون متجاهلةً ستيڤن. فقطب حاجبيه وأخذ ينظر إلى وجهها، وسرعان ما قرأ فيه خيبة الأمل حين عرفت جينيڤر المتصل.

قالت: «آه، فهمت. شكراً لإعلامي بذلك».

أقفلت السماعة ووقفت لحظة وهي تحاول التعود على الفراغ الكئيب الذي لفها من رأسها حتى أخمص قدميها... لطالما دغدغ صوت دايڤيد سمعها. أما الآن فقد انتهى كل شيء، عادت مرة أخرى تلك الفتاة الصغيرة

التي لم تصدق أن بابا رحل إلى الأبد. عادت تلك الطفلة التي كلما دار المفتاح في القفل، توقعت من لم يجيء قط ولن يجيء أبداً.

رأت ستيڤن يراقبها، فتكلفت ابتسامة: إنه البيطري مرة أخرى. يقول إنه يبذل جهده للقدوم.

أجاب برقة: «فهمت».

ـ لماذا تحدّق فيّ؟.

ـ أأفعل هذا حقاً؟ آسف، دعينا نلقي نظرة على الأم.

كانت «مخالب» قد وضعت مولودها الثالث وأصبحت على وشك وضع الرابع.

قال: «دوماً كنت أجهز حليباً دافئاً في هذه المناسبة. فالوضع يستلزم جهداً بالغاً يجعل الأم ضعيفة وبحاجة إلى ما يقوّيها».

تمتمت وهي تندفع إلى المطبخ: «حليب دافيء؟».

وعندما عادت كانت القطة قد وضعت مولودها الرابع، وأخذت تلعقه بنشاط. وحين انتهت أخذت تلعق الحليب. ثم استقرت مع مواليدها وقد بان عليها الرضا لإدائها مهمتها على أكمل وجه.

ـ أظن الولادة انتهت ولكن على البيطري أن يقرر ذلك.

قال جينيڤر بلهفة: انظر. المولود الأخير أسود اللون أبيض المخالب كأمه.

فقال ستيڤن ضاحكاً: «مخالب» رقم اثنين.

ـ ربما هو ذكر. عند ذلك سأسميه «ستيڤن».

وجلست متربعة أمام الصندوق وقد بدت على وجهها نشوة غامرة.

ـ ابقي هنا وسأعد أنا القهوة.

دخل ستيڤن المطبخ، وعندما عاد كانت جينيڤر ما تزال جالسة في الوضع نفسه تتفرج على الأسرة الصغيرة الجديدة بلذة بالغة فأخذ ستيڤن ينظر إليها بحيرة، ثم سألها بصوت يكاد يقارب الهمس.

ـ أهذا ما تريدينه حقاً؟ أن ترعي الحيوانات؟.

قالت وهي تتناول منه القهوة: «أظن ذلك. برأي تريفور هذا المكان أشبه بمنطقة يحظر فيها الصيد، ولكن لا يمكنني أن أحضر كثيراً من الحيوانات لأنني خارج المنزل طوال النهار».

قالت ذلك وهي تهمس بدورها كي لا تزعج القطة.

ـ لأنك من ملوك الصناعة؟.

مطت شفتيها: «لا أشعر بأنني من ملوك الصناعة».

ـ لا يبدو عليك ذلك في هذه اللحظة. أأنت المرأة التي اندفعت إلى مكتبي أمس وهي تقول للسكرتيرة إنها تريد رأسي على طبق؟.

قالت وهي تحجب عينيها: «لا تذكرني بذلك خاصةً وقد كنت طيباً معي».

ـ لكنني أحب ذلك، تقول أليس إنك بدوت كطغاة القرون الوسطى لاسيّما عندما قلت: «أحضري لي رأس ستيڤن لبري». كم أتمنى لو سمعتك بنفسي».

ـ هذا فظيع يا ستيڤن. ما زلت غاضبة منك لأنك خدعتني.

قال ضاحكاً: «لابأس في ذلك... أتمتع بقلب قوي ويمكنني الاحتمال».

فسألته: «ولكن كيف أكون غاضبة منك وقد دعوت القطيطة لتوي باسمك؟».

ـ هذه أحجية، أليس كذلك؟ لماذا لا تغيرين اسم القطيطة مرة أخرى فنعود عدوين؟.

ـ هل تريدنا أن نكون عدوين؟.

ـ متعة هذا لا تضاهي متعة كوننا عاشقين.

ـ تعني صديقين؟

ـ أعرف ما أعنيه.

ولمعت عيناه في العتمة، لكن جينيڤر رفضت التجاوب فقالت: بعد هذه الليلة، لن أفكر فيك كعدوّ أبداً.

ـ هذا تسرع منك، فأنت لا تعرفينني إلى هذه الدرجة كي تثقي بي.

ـ أظن كلامك صحيح. وربما لن أعرفك أبداً.

ـ مع أن نصف لندن تتحدث عن مشاعرنا الجنونية.

ـ سرعان ما يتحدثون عن شيء آخر. الفضائح تولد وتموت.

ـ هل نحن كذلك؟ فضيحة؟.

فقالت بحزم: «بل وقود للأقاويل... سيفقدون الاهتمام لاحقاً».

ـ ولكن هل سنفقد نحن ذلك؟.

كانت تعلم أنهما يتوهان في أرض خطرة، ولكن ما أروع أن تنظر إلى ذلك التألق في عينيه... لا، فهذه طريقة جنونية لقضاء الأمسية. ومع ذلك، فقد كانت إحدى أجمل الأمسيات التي قضتها في حياتها. كانت مشاعرها راضية تماماً، وتختلف عن تلك المشاعر الخطرة التي بعثها فيها من قبل، إنما هذا ما تحتاجه حالياً.

فجأة قاطعهما جرس الباب المزعج، وإذا بالبيطري على العتبة يعتذر. فقبلت جينيڤر اعتذاره وهي تدخله إلى حيث الصندوق، أما ستيڤن فنهض ليجمع أغراضه. لقد انتهى هذا المساء الممتع!.

قال وهو يتجه نحو الباب: سأراك غداً في منزل جدك. أترقب تلك الحفلة بشوق ولو إنني أشك في أنها ستكون بمثل بهجة هذا المساء. تصبحين على خير يا جينيڤر.

ـ تصبح على خير يا ستيڤن، وشكراً.

***

٤ ـ معاً في ضوء القمر

أمضت جينيڤر عصر اليوم التالي في زيارة أحد زبائنها وعندما عادت إلى مكتبها وجدت عدة رسائل هاتفية تنتظرها على الجهاز.

قالت السكرتيرة: «اتصل دايڤيد كونر خمس مرات. لا أظنه صدقني حين أخذت أردد على مسمعه أنك غير موجودة».

منذ تلك الحفلة، فكرت كثيراً في دايڤيد، وتساءلت إن كان يرغب في رؤيتها، وكم قاومت إغراء الاتصال به. وها إنها تكافأ الآن على صبرها!

ـ دايڤيد.

خاطبته وهي تسمع صوته على الهاتف فرد بمرح يتخلله العتب: شكراً لعودتك إليّ أخيراً.

ـ كنت في الخارج وقد عدت الآن.

ـ فكرت أن نتناول شراباً في مكاننا المعتاد.

ترددت. فستيڤن وأخته قادمين الليلة وعليها ألا تتأخر وأخيراً حسمت الأمر: «على أن تكون جلسة سريعة».

ـ هل أنت مرتبطة بموعد ما؟.

قفز قلبها وهي تشعر بغيرته: ليس موعداً طبعاً. بل عليّ أن أعود إلى البيت.

ـ في مقهى «التاج» إذن، لعدة دقائق فقط.

بعد ذلك بساعة، دخلت إلى المقهى، الخافتة أنواره. ما زال كل شيء على حاله. لقد نجح الأمر، وداڤيد يريدها أن تعود إليه. وعندما تنتهي حفلة العشاء الليلة، ستتمكن من التحرر من ستيڤن بكل هدوء.

كان دايڤيد ينتظرها على مائدتهما المعتادة في الزاوية وما إن أقبلت نحوه،

حتى منحها تلك الابتسامة الرقيقة المترددة التي طالما مست قلبها.

وقف لبحييها وعانقها عناقاً سريعاً. تكلما لدقائق وهما يتجنبان الإشارة إلى خصامهما أو إلى أحداث الحفلة الأخيرة وأخيراً قال دايڤيد: شكراً لحضورك. خفت ألا تتحدثي إليّ مجدداً... لقد قلت، حينذاك، أشياء ما كان ينبغي لها أن تقال.

فابتسمت سعيدة لعودتها إليه.

ـ لقد نسيتها.

ـ أحقاً؟ ولكن لمَ لم تجيبيني اليوم؟.

ـ كنت في الخارج، يا دايڤيد.

سألها بهدوء: أليس هذا عذراً لتجنبي؟.

ـ كلا، فلا علاقة له بك.

بدت على شفتيه ابتسامة جافة غير مصدقة، ولأول مرة تكتشف جينيڤر أنها تشعر بالضيق معه. صحيح أنها تنجذب إلى حاجته إلى الاطمئنان، ولكن ألا يبالغ في ذلك قليلاً؟.

وعادت كلمات ستيڤن ترن في ذهنها: «يبدو أنانياً معتوهاً لا يفكر إلا في نفسه، وهو يظن أن كل الطرق تؤدي إليه». لكنها سرعان ما أسكتت ذلك الصوت.

ـ صدقني يا دايڤيد، لم أكن أتجنبك. فخصامنا مرّ وانتهى.

ـ هل أسبب لك الإحراج؟ لا سيّما الآن وقد وجدت شخصاً آخر؟.

أحست بغيرته... ما زال يحبها إذن؟ فقررت أن تداعبه.

ـ وأنت أيضاً وجدت فتاة أخرى.

ـ بيني؟ إنها سكرتيرتي وهي لم تخرج معي إلا بصفتها مرافقتي، أما أنت فقد نجحت في إحداث مفاجأة عنيفة بظهورك مع ستيڤن لبري.

ـ هل تعرفه؟.

ـ كلا. لم أعرفه تلك الليلة. ولكن منذ ذلك الحين أخبرني واحد أو اثنان عنه....

إذن، كان يسأل عن ستيفن لبري!..

قال: «لا بد أن علاقتكما وثيقة إلى درجة أعطيته أزرار القميص؟».

اشترت تلك الأزرار بعد أن أعجب بها دايڤيد في الواجهة، ويبدو أنه انتبه إليها في الحفلة. كيف تشرح له السبب من دون أن تكشف عن سر استئجارها لمرافق؟ لا تريد أن تفعل ذلك طبعاً... وفجأة رن هاتفها الخلوي. كان المتصل أخاها.

سألها: «أين أنت؟».

ـ أتناول فنجان قهوة وسأحضر حالاً.

ـ أرجو السرعة. كما تعلمين علينا أن نزور جدنا لأجل «لبري» ذاك.

كان صوت تريڤور مسموعاً. فتسمر دايڤيد مكانه ووضع كأسه من يده بينما أسرعت جينيڤر تنهي المكالمة.

تمتم دايڤيد بصوت مثقل: «فهمت».

ـ ليس الأمر كما تظن. إنه وأخته مدعوان لتناول العشاء عندنا.

ـ ما أجمل هذا.

ـ إنه عشاء عمل، يا دايڤيد.

سألها متهكماً: «أحقاً؟».

أمسك بيدها وتلاقت أعينهما. انحنت نحوه وعانقته. لشدّ ما اشتاقت إلى ذلك في الأسابيع الماضية! وها هي الآن تعود إليه.

عندما أطلقها دايڤيد، تملكها شعور غريب وكأنها فقدت شيئاً ما... ولكن من الحماقة أن تحكم على عناق دايڤيد أو تقارنه بعناق ستيفن. وهذا، حبيبها دايڤيد هو الرجل الذي تحب. فتمالكت نفسها قائلة: «إلى اللقاء حبيبي».

ابتسم هو يداعب يديها بلطف وحنان أما هي فتركته بقلب مرح. دهشت قليلاً لأنه لم يطلب رؤيتها مرة أخرى، لكنها عزت سبب ذلك إلى عجلتها... بالتأكيد لم تسنح له فرصة لذلك.

كان منزل «بارني» عبارة عن قصر يقوم في ضاحية من ضواحي لندن،

ووصلت إليه جينيڤر مبكرة. فاسترخت في «البانيو» وغسلت مع الماء همومها.

ثم ألقت نظرة على الصحيفة بجانبها فاتسعت عيناها تعجباً...

ارتدت ثوباً أخضر بلون الزيتون، يكشف قليلاً عن العنق تزينه سلسلة ذهبية طويلة حتى الصدر، تزدان بياقوتة كبيرة... إضافة إلى ياقوتتين تتألقان في أذنيها. كانت سعيدة لتبدد الفجوة بينها وبين دايڤيد، سعيدة أكثر لأنه يحبها حتى الغيرة.

نزلت إلى الطابق الأسفل فوجدت تريڤور هناك، أنيقاً رزيناً يشع قوامه الممتلىء قوةً ورزانة ووقاراً. وما إن أبصر أخته حتى أومأ برأسه.

قالت بهدوء وهي تناوله الصحيفة: أود لو أتحدث إليك لحظة على انفراد. هل رأيت هذه؟.

قرأ تريڤور: «تغريم شخص بسبب السكر والعربدة».

فسألها: ما الجديد في هذا؟.

أجابت: انظر إلى الاسم.

نظر، ثم صفّر متعجباً: «فريد ويزلي».

قالت: إنه اسم أبينا.

ـ ربما هي مجرد مصادفة. كثيرون في هذا العالم يحملون اسم «فريد ويزلي».

ـ لعله هو نفسه. لعله يتسكع في هذه الأنحاء.

ـ لكننا لم نسمع منه كلمة واحدة منذ سنوات جينيڤر، حتى أننا لا نعرف إن كان حياً أم ميتاً، كما لا نريده أبداً أن يعود إلينا.

ـ ألا نريده؟.

ـ كنت أصغر من أن تعلمي الحقيقة. لكنه فعلاً رجل سيءٌ للغاية. وكما قال جدّنا، لاحق أمنا لأنها ابنة رجل غني، وعندما تزوجا، أخذ يعبث خارج بيت الزوجية وعاش عالة على الأموال التي كان جدي يدفعها لأمي. كنت أسمع مشاجراتهما. أتعلمين ما قاله لي مرة؟ (عندما تكبر، يا ولدي، لا تنسَ

أن العالم مليء بالنساء). كنت في الرابعة عشرة. وبعد ذلك بأسبوع قطع جدي عنه النقود وطلب منه أن يجد لنفسه عملاً، وهكذا هجر البيت. ولا نرغب أبداً بعودته...

قالت متأملة: كلا. لا أظن ذلك.

كانت تعلم أن ما قاله تريڤور صحيح. كانت حينها صغيرة السن إلا أنها كثيراً ما سمعت شجاراتهما. نبذت هذه الذكريات من ذهنها. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها في السؤال: هل تعلمت الدرس ذاك من أبيك؟.

ـ أي درس؟.

ـ أن العالم مليء بالنساء؟.

فأجاب بصرامة: «أعمالٌ كثيرة تنتظرني ولا وقت لديّ لذلك النوع من العلاقات التي كان والدنا يعتبرها طبيعية».

داعبته بخبث: نعم، يبدو أنك سبحت عكس التيار وأصبحت متطهراً. لسوف يشعر أبونا بالخجل بك.

ـ أرجو ذلك، فأنا أخجل به أيضاً. أرجو ألا يتأخر ضيوفنا.

قالت متأملة: «ترى ما هو شكل شقيقة السيد ليري؟».

ـ امرأة عاملة، حسب قوله.

دخل الجد بارني مرتدياً ملابس العشاء. لم يكن مظهره يوحي بالهيبة بل هو قصير القامة نحيف البنية. اكتسح الشيب مفرقه، فبدا لطيفاً طويل الوجه بينما الرقة مرتسمة في عينيه الباسمتين... وهذه الليلة أخذت عيناه تلمعان ابتهاجاً وترقباً لحفلة العشاء، وفجأةً رن جرس الباب ففتحته جينيڤر وإذا بستيڤن يقف عنده.

ـ مساء الخير يا سيد ليري.

ـ مساء الخير يا آنسة نورثون. هل لي أن أقدم أختي «ماود»؟.

كان يتحدث بلهجة رسمية تدعو إلى الإعجاب، ولكنها تناقض تماماً لمعان نظرات القرصان في عينيه. وما إن تنحى جانباً حتى انكشف المنظر عن

المرأة الشابة التي ترافقه. ومضت لحظة صمت...

كانت في منتصف العشرينات من عمرها، ذات جمال أخاذ شامخ بكبرياء. تكاد توازي أخاها طولاً، ولعل ذلك يعود إلى تسريحة شعرها فهو منسق بعناية ليزين قمة رأسها. أما ثوبها فطويل يلامس الأرض، وبفضل قماشه الرقيق تألق قوامها أهيفاً ممشوقاً.

جذب تريڤور نفساً عميقاً، ثم تقدم شارد النظرات ليحيي هذا الطيف الجميل، لكنه وجد نفسه يصافح يداً أشبه بمخلب ذهبي تضغط بقوة وكأنها تفرض نفسها فرضاً.

هتف بصوت أجش: «أهلاً ومرحباً».

فأجابت بصوت أبح: «أهلاً ومرحباً بك».

تقابلت عينا ستيڤن بعيني جينيڤر فابتسمت له وهي تهمس: أرى أنها ستكون سهرة حافلة.

قال بابتسامة عريضة: لا أدري إن أصبت في إحضار «ماود».

ـ أتظنه سيضجرها؟.

ـ كلا، بل أخاف أن تأكله هي حياً. إنها هوايتها.

ـ لا تقلق على تريڤور، فالريح نفسها لا تهزه. قل لي كيف تبدو بهذه الروعة؟.

ـ تكرّس حياتها لجمالها، إنها عارضة أزياء.

ـ لكنك أخبرت تريڤور بأنها تكرس حياتها لعملها.

ـ كلا، بل قلت إنها تكرس حياتها لتحصيل المال... إنها تكسب مبالغ طائلة.

ـ لا شك أنك لم تصفها كما يجب.

وأشرق وجه ستيڤن فجأة بابتسامته العريضة: لم أستطع سوى ذلك. إن أخاك أبله مغرور وحماقته دفعتني لهذا التصرف. آسف إن جرحك هذا الكلام.

فضحكت جينيڤر: «كلا. علي أن أعترف بأنني غالباً ما أفكر في الشيء

نفسه».

ـ بالمناسبة، كيف حال الأم الجديدة والجراء؟.

ـ في أحسن حال... لقد أنجبت ثلاث إناث وذكراً واحداً. والجميع في أفضل حال... لم تسنح لي فرصة لشكرك بالشكل المناسب.

ـ لا ضرورة لذلك. كل ما فعلته هو الجلوس هناك.

قاموا إلى العشاء، أجلس الجدّ ستيڤن إلى جانبه وجينيڤر إلى الجانب الآخر. وذعرت وهي تراه يجلس تريڤور بجانب ماود. عمّ يتحدثان يا ترى؟.

ولكنها عندما نظرت إليهما مجدداً، كانا مستغرقين في الكلام... هو يتحدث بحرارة، فتجيبه هي بكلمات متقطعة. والتقطت جينيڤر نتفاً من حديثه «سوق الأسهم... الثمن المستعجل...».

كانت عينا ماود الكبيرتان مسمرتين على وجهه، ولكن من المستحيل أن تقرأ شيئاً فيهما. ثم ركزت انتباهها على ستيڤن فوجدته يخوض حديثاً عميقاً مع جدها. وكان ستيڤن يقول: لعلك لا تعلم ذلك، يا سيدي، لكنك أسديتني نصيحة ثمينة. فيوم درست إدارة الأعمال كان لدينا محاضر اتخذ من طريقة عملك مثالاً.

بدا بارني مستمتعاً تماماً، ولاحظت جينيڤر أنّ قرابة روحية أصبحت تجمع بين الاثنين ثم تشعب الحديث. وبدأ تريڤور يخبرهم بقصص مضحكة عن أيام جينيڤر الأولى في الشركة، وأخطائها حينذاك.

قالت تحتج وسط عاصفة من الضحك: هذا ليس عدلاً. لم أعد أفعل مثل تلك الأشياء.

فقال تريڤور: «بل أنت الآن أسوأ. ما زلت تتصرفين أولاً، ثم تفكرين بعد ذلك. إننا نسمي ذلك «ضباب جينيڤر الأحمر». إنه يصيبها فجأة من دون سابق إنذار فتقدم على أفعال جنونية. أما أنا فأمضي أياماً في إصلاحها».

فصاحت جينيڤر: «هذا قذف وتشويه للسمعة».

لكنها في داخلها كانت مسرورة وهي ترى أخاها يتبسّط في الحديث إلى حد الابتسام، بل كان يبتسم كثيراً في الواقع، وغالباً في اتجاه ماود.

كانت ليلة دافئة. وعندما انتهى العشاء، تناولوا القهوة على الشرفة. كان تريڤور ما يزال مشغولاً بماود وهي تستمع إليه بحماس، أما الجد بارني فقد استقر به الحديث على موضوعه المفضل، حديقته: «أود لو نجول فيها، لكنني متعب قليلاً. جينيڤر، عزيزتي، لماذا لا تقومين بهذا الشرف؟».

كانت الحديقة مزينة ببراعة. إذ تنتشر أضواء مختلفة الألوان، هنا وهناك. وهكذا تمكنا رغم الظلام، من رؤية الطريق عبر الممرات المتعرجة بين الأشجار.

قال ستيڤن فجأة: إنه مكان ساحر. أنا أيضاً أملك حديقة واسعة، ويوماً ما، لا بد أن أزرعها كما هذه... إنما حالياً، ماود هي التي تهتمّ بها.

ـ هل تعيش معك؟.

ـ تقريباً. يقتضي عملها أن تسافر كثيراً، تظنّ أن لا ضرورة لاقتناء منزل. وهكذا تحتلّ غرفتين في بيتي.

ـ أظن أن عارضات الأزياء اعتدن على محاربة الضجر، أليس كذلك؟ أظن هذا ما يحدث الآن.

وأخذت تضحك بصوت خافت فقال: أشك أن شيئاً يربطها بتريڤور.

سارا بتكاسل نحو البحيرة المزينة التي بدت طويلة ضيقة، يعلوها جسر ريفي مضاء بمصباح.

اتكأت جينيڤر على الحاجز تستمع إلى أصوات البط في الأسفل.

قال ستيڤن فجأة: «حدسي يخبرني بأن دايڤيد قد اتصل بك».

ـ هذا مجرد تكهن منك.

حاولت أن تتصنع الهدوء، لكنها لم تستطع أن تمنع ابتسامة خفيفة.

ـ أعرف أنك تبدين مختلفة تماماً هذه الليلة. أول تعارفنا كان يبدو عليك التوتر والضيق. أما في المرة الثانية فبدوت مجنونة بالأمل. الليلة الماضية كنت لطيفة إنما شاردة الذهن. أما اليوم فأنت سعيدة ساحرة، والسبب واضح.

ـ ربما.

ونظرت إليه بإثارة واستفزاز.

قال: «يجب ألا تنظري إلى رجل بهذا الشكل إذا كانت نواياك بريئة».

ـ إنك فطنٌ جداً. يبدو أنك تفهمني جيداً.

ـ ليس كثيراً. لا يمكنني أن أفهمك حين تكونين مع دايڤيد. ماذا يملك حتى يحوّلك من ساحرة متوترة إلى عروس بحر مغرية؟.

قالت ضاحكة: إذن فأنت تراني عروس بحر مغرية؟.

ـ إنك تعرفين ما أحسّه، يا جينيڤر، تماماً كما أعلم أنه شعور مشترك. إنه موجود مع أننا لا نتفق في الرأي كثيراً. إنه موجود بالرغم من حبيبك. هل أنت على علاقة مع دايڤيد بالمناسبة؟.

فاجأها هذا السؤال. مضت لحظة استعصى عليها فيها الكلام، بينما تابع ستيڤن يقول: أنا لا أعني حالياً، بعد خصامكما، بل قبل ذلك.

ـ لا أحب الخوض في شؤون حياتي الغرامية معك.

ـ لا يبدو عليكما ذلك... على كل إنه قرار مناسب. فلسوف نكون، أنا وأنت عاشقين.

أخرستها وقاحته. وأخيراً قالت: حسناً، لن نكون عاشقين أبداً.

ـ حسب تقديري، هذا ما نحن عليه الآن، وأنت تعلمين هذا... إذ مهما تلاعبنا بالكلام، يبقى دائماً شيء في الأعماق... إحساسٌ ولد فينا منذ التقينا في ليلتنا الأولى تلك. قد يمكنك التغاضي عن الأمر أما أنا فلا.

ـ أنت مخطىء. دايڤيد هو من أريد... لهذا تحطم قلبي عندما ظننت أنني فقدته.

فقال بمكر: نعم. أذكر شيئاً عن تفاصيل... تحطم قلبك ذاك. أعتقد أنك ستضعفينني الآن... ما هذا؟.

ـ أين؟

ـ هناك.

قال ستيڤن ذلك وهو يمسك بيدها يجرها عن الجسر ليتواريا خلف الأشجار... بعدئذٍ أخذا يراقبان تريڤور وماود وهما يجتازان الجسر، وقد تشابكت يداهما. وفيما هما كذلك وصل إليهما صوتٌ خافتٌ.

ـ إن إعادة الصفقة إلى مكتب مونوبوليس وميرجرز للسمسرة تخفض من أسعار الأسهم، وهذا هو وقت الشراء، ولكن فقط إذا...

وما لبثا أن توارياعن الأنظار.

وقف ستيڤن وجينيڤر ذاهلين. وفي وقت واحد، انفجرا في ضحك عنيف مكتوم. ثم قالت بصوت مختنق: لا أصدق هذا، حتى من تريڤور.

مسح ستيڤن عينيه: «يا للمسكينة ماود! لن تصفح عني أبداً».

قالت جينيڤر وقد أخذت تضحك من جديد: أزهار وضوء القمر... وكل ما يستطيع الحديث عنه هو مكتب «مونوبوليس وميرجيرز» للسمسرة؟ رباه! لن أصبح عمة أبداً إذا استمرّ على هذه الحال.

وتبددت غيوم التوتر التي تعكر صفاء الجو بينهما. فسارا على ضفة البحيرة إلى أن وصلا إلى مقعد خشبي وأخذا يتأملان الحباحب المضيئة. وأخيراً قالت: أظن الوقت حان للتحدث في أمر افتراقنا بحذر، حتى لا تهبط أسعار أسهم أيّ منا.

ـ آه، ومن تحدث عن الافتراق؟.

ـ لكن هذا لا يمكن أن يستمر.

ـ الأمر ليس بهذه البساطة. يجب أن يرانا الناس معاً مرة أخرى على الأقل. بعد غد ينعقد اجتماع لحملة أسهم «شركة ديلاكورت المتحدة»، وبما أننا نملك أسهماً فيها، سيكون طبيعياً جداً، أن نحضره معاً.

قالت متأملة: «لا أدري...».

فرد بمكر: «لا تنسي أن دايڤيد هو أيضاً من أصحاب الأسهم، وقد يكون هناك. فكري في الاحتمالات المتوقعة يا جينيڤر... سيرانا معاً، وستخبرينه بأننا زميلان فقط... بينما تظهرين، طبعاً، بعض المراوغة. وإذا حالفك الحظ، سيرسل إليك وروداً في الليلة نفسها».

فقالت: «أنت خبير جداً في هذه الأمور».

ـ لطالما لقبت بالمناور.

بدت ابتسامته العريضة لا تقاوم. ولوت جينيڤر شفتيها قائلة: حسناً،

سأحضر ذلك الاجتماع على كل حال، فإذا كانت هذه وسيلة للتأثير على دايفيد، يمكنني أن أخرج معك بضع ساعات.

قال باعجاب: «جينيفر، عندما تتحدثين بهذا الشكل، لا يستطيع أي رجل مقاومتك».

ـ ستيفن، سأقوم بذلك الأمر مرة واحدة فقط، وبعد ذلك تنتهي علاقتنا.

ـ سنرى، من يدري؟ ربما خطرت لي أفكار أخرى.

ـ لا تغير الموضوع.

ـ إن سحرك هو الموضوع. لقد فقدت شهيتي وبت شبحاً لا يعرف الرقاد.

فقالت وعيناها تلتقيان بعينيه المازحتين: وأصبحت كاذباً أيضاً. أنت لا تهمل نفسك أبداً ولا يعقل أن تفقد شهيتك أو نومك.

ـ هذا صحيح. لكنني فكرت أن أعبّر عن عواطفي ببعض الكلمات... ثم كفاك غزلاً بعينيك، فأنا لست دايفيد كونر لكي تغويني.

أخذت جينيفر تضحك. وشعرت بالسرور والثقة بالنفس.

ـ أتظنني غير قادرة على إغوائك إذ قررت ذلك؟

ـ بل أظنك قادرة، إذا قررت أنا أن أسمح لك بذلك.

ـ أنا واثقة من أنك قررت ذلك فعلاً... فأنت لست من النوع الذي يتوانى في الحصول على مراده.

رفع كأسه قائلاً: «أقر بأن هذا صحيح».

سألته: «هل قررت، تلك الليلة، السماح لي بذلك؟».

ـ في تلك الليلة كنت أمثّل دوراً.

ـ ليس طوال الوقت. كنت أنا التي أمثل، لأجل دايفيد.

ـ أتقصدين تلك الطريقة التي مررت فيها باصبعك على وجنتي مع أن دايفيد لم يلحظ ذلك؟

فردت بسرعة: «هذا من تخيلاتك».

ـ أنا رجل من دون مخيّلة، وماذا عن مرافقة دايفيد؟ هل كانت تمثل هي الأخرى؟.

ـ إنها سكرتيرة. وعليها أن ترافقه حين يخرج فهذا جزء من عملها.

ـ لكنها معه طوال النهار وكل يوم، من التاسعة حتى الخامسة. وبما أنها حريصة على عملها فهي لن ترد له أي طلب. عليك أن تقلقي لذلك.

ـ أنا أعرف دايفيد أكثر مما تعرفه أنتَ.

ـ لكنك لا تعرفين شيئاً عن الرجال، يا جينيفر، وإلا لما خرجت معي في ضوء القمر، فيما تعلمين أنني لن أتركك دون عناق.

كانت تعلم ذلك طبعاً، لكن كرامتها دفعتها إلى القول: سأعود الآن إلى البيت.

ـ ليس قبل أن أعانقك. أريد أن أعرف إذا كنت أذكر عناقنا السابق.

حاولت جينيفر أن تحوّل نظراتها عن عينيه، ولكنه ما زال يملك تلك السلطة عليها. ورغماً عنها، شعرت بأحاسيس قديمة تجتاحها من جديد.

نهضت عن المقعد فجأة وسارت فتبعها حتى لحق بها وأمسك بيدها وهو يقول برقة: «اصغي».

أصغت جينيفر، فسمعت شدو عندليب عذب.

تمتم يقول: «لو كنت معك في جلسة حب، لبحت لك بمشاعري مع أنك تنكرينها، ومع أنني لا أؤمن بها».

قالت ببطء كما لو أنها في حلم: كلامك غامض. كيف تشعر بشيء لا تؤمن به؟.

ـ هذا سهل. أنت تثيرين فيّ مشاعر لا وجود لها في الحقيقة. ولو تأكدت من وجودها فعلاً لأصبت بهلع شديد. أنت تسبّبين لي الاضطراب جينيفر مع أنني أدرك بأن المسألة كلها وهم بوهم.

وصلا إلى شجرة سنديان ضخمة. استندت هي إلى جذعها وأخذت تنظر إلى القمر والنجوم تتألق من خلال أغصانها. بينما النسائم الرقيقة تتلاعب بأوراق الشجر.

قالت برقة: ربما... ومع ذلك، ستظل قلقاً مضطرباً، فبعض الأوهام أقوى من الحقيقة.

- أتشعرين بذلك أنت أيضاً؟.

- اطمئن، الأوهام لا تدوم. سرعان ما يعود المرء أرض الواقع.

- هل ستعودين أنت؟.

- لكنني لم أترك الأرض قط.

قالت ذلك وهي تعلم أنها كاذبة.

أسند كتفيه العريضتين إلى جذع الشجرة، ومضى يراقبها ثم قال: أحدنا يخدع نفسه. ولا أدري من.

- قد لا نعرف أبداً.

- سنعرف يوماً ما. فلنأمل ألا يحدث هذا بعد فوات الأوان.

وضع يديه على جذع الشجرة وأحاطها من كل جانب وكأنها سجينة. ابتسمت له واثقة من أنها ما زالت تملك زمام الأمور. وعندما يحني رأسه ليعانقها ستكون مستعدة له.

وإذا بشيء يحدث... بدا وكأن العالم قد انتقل من مكانه، وكأنها كانت مخطئة منذ البداية... ماذا تفعل هنا؟ كيف تقوم بألاعيب الحب هذه بينما الرجل الذي تحبه حقاً غير موجود؟ دايفيد هو من تربع على عرش قلبها... أما ستيفن فهي واثقة من أنه لا يملك حتى قلباً ليقدمه إليها. وعندما أوشك أن يعانقها أدارت رأسها جانباً وهي تتنفس بسرعة. توقف ستيفن وهو يتأملها بعينين ثاقبتين. رأى ارتجاف ولمعان الدمع على أهدابها ففهم. ابتعد عنها وهو يقول بخشونة: أنت لا تفهمين أبسط الأمور عن الرجال.

وأوشكت أن تدافع عن نفسها، لولا أنه كان قد رحل عنها.

* * *

منذ توفي والد ستيفن وماود قبل سنوات كثيرة، عاش الاثنان معاً من دون أقرباء. ورغم السنوات الأربعة عشر التي تفصل بين عمريهما، لطالما اعتمد الواحد منهما على الآخر وسلمه كل أسراره. كانت ماود تعجب بنباهة

أخيها بينما يحترم هو ذكاءها وفطنتها.

قالت له وهما في طريق العودة إلى المنزل.

- إذن فهذه هي جينيفر. إنها فاتنة، وتشع بهاء.

أجاب ببطء: «هذا صحيح. مكالمة هاتفية واحدة من حبيبها تحوّلها إلى امرأة أخرى».

- ولكن.. ألست أنت حبيبها؟

- ليس بعد.

قال ذلك ثم خلد إلى الصمت، متغاضياً عن تلك النظرات الفضولية التي أخذت أخته ترمقه بها، وأخيراً سألته: من هو الرجل الآخر؟.

- شخص تافه يدعى دايفيد كونر، لكنه لن يستمر معها.

- لكنه موجود الآن، سيكون عثرة في وجهك... أنا التي طالما اعتقدت أنك لن تقابل امرأة تناسبك...

وضحكت، فقال: ولن أقابلها أبداً... جينيفر امرأة جذابة حقاً وأنا متشوق إلى الأسابيع القليلة القادمة، لكنني لا أظن أن هناك ما يدعو إلى القلق.

- يا أخي العزيز، قد لا أكون ماهرة في أمور كثيرة لكنني ماهرة جداً في معرفة أفكار الناس.

- ما شككت قط في هذا.

- لو نشبت معركة، فسأساندها هي بالتأكيد... أفضل أن أراك تتخبط في آلام ومشاكل الحب.

انفجر ضاحكاً بصوت عال: لا تضعي هذا في حسابك... بالمناسبة، أنا آسف لهذه الليلة... لو كنت أعلم أن تريفور سيحضر، لما أصطحبتك لقضاء هذه الأمسية معه.

- آه، لكنني وجدته طيباً ظريفاً للغاية.

- طيب ظريف؟ ذلك المغرور الفج؟.

- أرجوك ستيفن! لا أريدك أن تهين الرجل الذي سأتزوجه.

٥ ـ من الرجل الوحيد؟

كما تنبأ ستيڤن، حضر دايڤيد إلى الاجتماع. رأته جينيڤر وهي تغادر المكان مع ستيڤن وإلى جانبه لمحت بيني جالسة معه. كان الاثنان يضحكان، فصدمها منظرهما صدمةً شديدة.

قال ستيڤن وهو يشدّ على يدها قليلاً: فلنذهب لتناول الغداء.

كان مطعم مركز الاجتماع فسيحاً طلق الهواء. قاد ستيڤن جينيڤر إلى أفضل موائد المكان، بجانب نافذة تطل على نافورة في الفناء. أفسح لها النادل كرسياً لتجلس، لكن ستيڤن أشار إليه بالتنحي جانباً، ثم أجلسها إلى الناحية الأخرى من المائدة. بدا واضحاً أنه يعرف ما يريد تماماً. وهكذا عجزت جينيڤر عن رؤية الموائد الأخرى، بينما انكشف المنظر كله لستيڤن.

قالت محتجة: لا أستطيع الرؤية من هنا.

ـ لا تقلقي، سأطلعك على تحركات القديس دايڤيد.

ـ لا تسمه القديس.

ـ ظننت نفسي أمدحه.

ـ ليست تلك نيتك الحقيقية ولا أظنك تفرح إن ناديتك بالقديس.

فامتلأت عيناه بألف معنى ومعنى ثم نظر إلى وجهها قائلاً: طالما أطلقوا عليّ أسماء كثيرة في حياتي، ولكن القديس لم تكن بينها. لاسيّما أن امرأة لم تجرؤ على ذلك قط. ألم يخطر ببالك أننا سندفع دايڤيد إلى الغيرة إذا أطلقت عليّ هذه الصفة؟.

ـ شكراً، إنه يغار فعلاً.

ـ لا يبدو عليه ذلك، فقد دخل لتوّه و «بيني» متأبطة ذراعه... لا تلتفتي، وتذكري أنك مفتونة بل ضائعة في سحر صحبتي.

ـ وهل أنا كذلك حقاً؟.

ـ إذا أردت أن تستعيديه، نعم. إن النادل يقوده إلى مائدة... كلا! إن دايڤيد يشير إلى الناحية الأخرى من القاعة... يريد بالتأكيد أن يختلس النظر إلينا. هذا شيء مشجع.

وعندما رأى نظرات جينيڤر الساخطة، قال: «كل ما في الأمر أنني سأحاول أن أساعدك».

ـ أنا لا أثق بك حين تبدو بريئاً، وقد أخبرتك أنه يغار فعلاً.

ـ كيف عرفت؟ هل اندفع كالإعصار إلى بيتك مهدداً بإطلاق النار علينا إذا رآنا معاً مرة أخرى؟.

فضحكت مكرهة: طبعاً لم يحدث هذا.

ـ هل هدد إذن بالانتحار؟ نعم، فهذا أكثر تأثيراً... لعله قال لنفسه، تلاعب بقلبها، حرّك عواطف الحنان فيها، فهذا ينجح دوماً.

ـ أتقول هذا الكلام عن خبرة؟.

ـ لم أكن بحاجة إلى إثارة العواطف قط، كما لم يحدث أن رأتني امرأة متردداً. لكنني لاحظت أن ذلك قد يأتي بنتائج شديدة التأثير. لابأس، إنه لم يفكر في ذلك بعد. أنا أعرف... هل هدّد بتدميري مالياً؟.

ـ دايڤيد لا يهدد... ليس من ذلك النوع من الرجال...

صححت قولها بسرعة... فساعدها على الكلام: لا بأس، ماذا فعل أثناء نوبة الغيرة اليائسة؟.

ـ لقد تناولنا بعض الشراب...

قالت ذلك وهي تتمنى لو أن هذه الكلمات لم تصدر عنها بهذا الشكل المتقطع الواهي.

ـ وبعد؟.

ـ بعد ماذا؟.

ـ لا تسكتي عندما يصبح الحديث مهماً. ماذا قال؟ أم أن كلامه كان عاطفياً وحميماً جداً بحيث لا يقال؟!.

ـ لا تحاول إثارة أعصابي. لقد أخبرتك تلك الليلة عن كل هذا.

سألها بذعر: أتعنين ذلك اللقاء الصغير؟ ألم يتبعه لقاء آخر منذ ذلك الحين؟ يا مسكينتي جينيڤر! ماذا فعلت لكي يرهقك ذلك البليد؟! لو كنت أنا مغرماً بك لملأت أوقاتك مرحاً.

ـ كم أنا محظوظة لأنك لست مغرماً بي!.

ـ إذا كان هذا ما تريدينه من علاقاتك الغرامية، فنحن الاثنان محظوظان. عليّ أن أعلّمك الكثير، لا أعرف من أين أبدأ!.

ـ لا تزعج نفسك. يمكنني أن أتصالح مع دايڤيد من دون مساعدتك.

ـ هذا حسن، سأحضر عرسك.. بعد حوالى خمسين سنة.

ـ ربما هو كما وصفته أنت... قديس.

ـ لا بد أنه مملّ للغاية.

ـ إنه سيد مهذب، إذا كان هذا ما تعنيه.

ـ لا فرق...

وأخذ يتأملها فترة ثم أضاف: أتعرفين كم تبدين جميلة عندما تتورد وجنتاك؟.

انتظر جواباً منها، لكنها صممت على السكوت فأردف بعد لحظة: إنه ينظر ناحيتنا. لعله لا يستحسن رؤيتك معي تماماً كما تكرهين أنت رؤيته مع «بيني».

ـ لا يهمني أمرها البتة. طالما قلت لك هذا.

ـ هذا صحيح. طالما قلت لي ذلك. لقد أشاح بوجهه الآن. إنه يدنو برأسه منها لينظرا معاً إلى قائمة الطعام.

ـ لا أريد أن أعلم هذا...

ـ اتركي إذن مسرح الأحداث من فضلك.

لم تستطع منع نفسها من الضحك، فقال راضياً: لابأس في الضحك.

هذا أفضل.

نظرت إلى عينيه... كان يتغلغل فيهما تألق غامض... كيف يبدو ظريفاً إلى هذا الحد المدمر؟ وفجأة، شعرت بدوار. كانت تجلس إلى جانب رجل جذاب ماكر يمنحها كل انتباهه. ورقصت في رأسها فكرة... ماذا لو تعودت على هذا، بسهولة؟ شرع ستيڤن في رواية قصة مرحة، فضحكت ملء شدقيها، ثم تقابلت أعينهما. وعلى الفور أدركت أنها قد اقترفت خطأً جسيماً. فقد اخترقت نظرته أعماقها وهي الآن تشعر بالتوتر والاضطراب يعمّان كيانها. فتألق العالم أمامها كبهارج شجرة العيد، كما ولدت فيها حيوية وبهجة وأحاسيس رائعة.

قدم النادل إليهما الطعام، وانتبهت إلى أنه لذيذ... لكن ذلك الإحساس ضاع إزاء بهجة كبرى وجدتها مع ستيڤن. لقد ركز كل انتباهه عليها كما لو أن العالم لا يحوي غيرها. ومع أنها تعلم أنه لعوب ماهر، وغير جدير بالثقة، شعرت بالغرور بالرغم منها، حين توجّهت إليها نظرات النساء الحاسدة. وكيف لا؟ وأكثر الرجال جاذبية مستغرقاً فيها، يكرّمها... كم كان احساسها جميلاً!.

تفاجأت به يراقبها بشبه ابتسامة، وعندما رفعت حاجبيها مستفهمة أشار إلى بذلة العمل الأنيقة التي ترتديها وبالتحديد إلى قميصها الناصع البياض والتطريز الذهبي الجميل عليه... قال: إنني معجب بملابسك العملية. فهي تماثل في الإغراء ملابس السهرة الجريئة تلك... أنت ترتدينها بطريقة مختلفة.

فقالت بتزمت: «لم يكن المقصود بها أن تكون مغرية. بل أن تعلن أنني امرأة جادة في عالم التجارة».

ثم أضاف: «وأراهن على أن يديك مزينتان بشكل جميل، أريني إياهما».

ـ يا ليتك تكف عن هذا الكلام الفارغ.

قالت ذلك بشيء من التكهم، ثم أرته يدها، فأخذها بين يديه ثم لمسها بشفتيه.

فقالت بمرح: «هذه شهامة منك لم أكن أتوقعها».

ـ إنني أمثل دور الصديق الحميم. إن دايڤيد ينظر إلينا متسائلاً. لقد رآني وأنا أقبل يدك بهذا الشكل، ولكن ذلك لم يقلقه كثيراً، ربما يرى في ذلك تعبيراً عن الاحترام الذي يفهمه. ولكن عندما أقبل راحتك بهذا الشكل، عندئذٍ يبدأ بالقلق حقاً لأنه يعلم أن نواياي ليست بريئة.

جذبت جينيڤر نفساً مرتجفاً وقد أحست بقبلته على راحتها وأخذ قلبها يخفق بقوة.

تمتم يقول وهو منحن على يدها: سيعلم أنني أريدك وربما أدرك أنني أردتك منذ أول ليلة تعارفنا فيها.

همست بصعوبة: «إنك متغطرس لا يطاق».

ـ لماذا؟ لأنني أعرف كيف أسعدك، ألا تعترفين بذلك؟.

لم تستطع الجواب. لكنها سرعان ما شعرت بالغضب يتصاعد فيها. لقد أرغمها ستيڤن على أمورٍ سبق وقررت ألا تقبلها. وهذا ما لا تغفره له، فهو يعلم تماماً أن هذا الغزل لا جدوى منه لأنها حبيبة دايڤيد وحده. لكنه، ومن دون خجل، استغل الوضع حتى باتت تشك في نفسها.

عادت تراجع أفكارها بسرعة... لا. لا شكوك لديها... إن مشاعرها الصادقة هي لدايڤيد، وما هذه المشاعر إلا جنون مؤقت. وعندما تنتهي منها ستكون زوجة مثالية لأنها تخلصت منه. يا ليتها فقط تتخلص منه بسرعة!.

سألها: «ما الذي تفكرين فيه؟».

أجابت مجفلة «لا شيء... مهم».

ـ أنت تعزلين نفسك في عالم غامض خاص بك. ولن تدعيني أدخل، أليس كذلك؟.

ـ لا، لن أستطيع إدخالك.

ـ هل هو هناك؟.

قالت بشيء من الكآبة: «لا أدري. قبل أيام كنت أظنني أدري، ولكن يبدو أن الأمور تغيّرت بيننا».

قال فجأة: «جينيفر، لا تشعري بمثل هذه الكآبة، خصوصاً من أجل

رجل آخر».

ـ دايڤيد ليس رجلاً آخر... إنه الرجل الوحيد.

أجابها بصوت خافت لم تكد تسمعه:

ـ فليساعدنا الله، نحن الاثنين، إذن.

تملكها الذعر وهي ترى ما حدث. لقد بدأ الحديث ممتعاً حافلاً بالدعابة، ولكنه جنح بهما فجأة إلى توترٍ يسوده الضيق.

أسرعت تتمالك نفسها، فسكبت كأسين من المياه المعدنية، وهي تطرح أسئلة سخيفة، وكان يجيب باختصار وكأن ذهنه في مكان آخر. وعندما غامرت برفع بصرها إليه رأته يتأملها، إنما ليس بسخرية كما توقعت.

وبعد ذلك لم يدر بينهما حديث يُذكر.

عندما نهضا للذهاب، قدم إليها ذراعه فتأبطتها ثم سارا والأنظار تحدق بهما. آخر نظرة لجينيڤر ألقتها على دايڤيد وهو يحدق فيها مصعوقاً.

* * *

أكثر ما يزعج جينيڤر في ستيڤن، تأثيره عليها، فكلماته الوقحة تبقى في ذهنها، وتلقي بظلها على حياتها حتى بعد غيابه.

من السهل عليها أن تضحك لتعليقاته الهزلية أو لسخريته من تصرفات دايڤيد الغيور. ولكن عندما مرّ يومان دون كلمة منه، لم تعد تقوى على الضحك. ومع ذلك سرت كل السرور لاختفاء ستيڤن، هو وكلماته الهازئة.

جمّد هذا تفكيرها للحظة، لكنها ما لبثت أن أدركت أنها لم تتوقف عن التفكير فيه قط. أينما وجهت نظرها تراه في خيالها، يرمقها أحياناً بنظرة مفترسة تنذرها بأنه يدرك تماماً ما يفعل. وفي أحيان أخرى تتذكر ما قرأته في وجهه في مطعم قاعة الاجتماع، وتسمعه يتمتم (فليساعدنا الله، نحن الاثنين!) وهذا أكثر ما يكدرها... فهي طبعاً، محصنة ضده...

اتصل دايڤيد بها ليخبرها أنه سيغيب أسبوعاً، لزيارة أمه المريضة في الساحل الجنوبي وسيتصل بجينيڤر فور عودته.

في هذا الوقت دعاها ستيڤن إلى عرض مسرحي، فوافقت. ومع أنها غضبت لمجرى الأحداث إلا أن ستيڤن كان متعاطفاً مع وجهة نظر الكاتب. وعلى العشاء، أخذا يتناقشان بحرارة، واستمرا في ذلك وهما في الطريق إلى البيت. وعندما افترقا، كانا، هما الاثنين، قد تحدثا في غاية الصراحة. ولم تستطع جينيڤر أن تتذكر سهرة ممتعة كهذه السهرة.

اتصل بها في اليوم التالي، وتناولا معاً العشاء في المساء. لكنها اختلقت عذراً للذهاب إلى بيتها مبكرة. أما الحقيقة فهي أنها قد استمتعت بصحبة ستيڤن أكثر من اللازم، وكلما أسرعت في إنهاء هذه العلاقة كان ذلك أفضل... فهي ضائعة بين اثنين... عقلها وأحاسيسها... من الجنون أن تتورط بعلاقة مع ستيڤن مهما بلغ الإغراء... فهي تعلم نتيجة هذه العلاقة. إنها أشبه بالإثارة التي تصيبها عند عرض الألعاب النارية. صحيح أنها لحظات لا تنسى لكن الألعاب النارية تتألق ثم تموت. وسرعان ما ينتهي العرض، يتحول الحفل بارداً مهجوراً ويرحل المتفرجون إلى بيوتهم وحيدين. وهي لم تنسَ بعد تلك الفتاة الصغيرة التي تُركت مرة للوحشة والهجران، بل ما زالت حية تنبض في ذاكرتها. لذا تراها تريد شيئاً واحداً فقط... تريد جذوراً... حياة مستقرة مضمونة وزواجاً طويل الأمد... وبكلمة أخرى، دايڤيد.

ثم تذكرت ابتسامة ستيڤن المداعبة، وواستعادت تلميحاته الماكرة فسرى الدفء في جسمها حتى نسيت كل شيء آخر. ثم استيقظت من تلك النشوة مصدومة خائفة مصممة على أن تكون قوية وتنبذه من حياتها.

وأخيراً، عاد دايڤيد وطلب رؤيتها في مقهاهما الصغير المعتاد. كاد يتعذر عليها المجيء فأنذرته أنها ستتأخر، لكنه بدا متلهفاً مصراً على رؤيتها.

ـ أريد رؤيتك حقاً، وسأنتظر مهما تأخرت.

وتمنت لو أن ستيڤن يسمع انتصارها هذا.

كان دايڤيد جالساً إلى مائدتهما المعتادة. مدّ لها يده وهي تقترب قائلاً: «خفت ألا تأتي. الموضوع في غاية الأهمية».

سألته بلهفة: «ما الأمر يا دايڤيد».

ـ مكتب «هندسة مارتسون».

ـ مارتسون؟.

ـ إنهم يراوغونني، تماماً كما سبق لك أن أنذرتني. كنت على صواب مع أنني أكره الاعتراف بذلك.

لم تستطع، في البداية، أن تفهم قصده. لكنها ما لبثت أن تذكرت أن خلافهما بدأ مع «مارتسون»...

قال يعتذر: «كان عليّ أن أعمل بنصيحتك. لقد أحضرت معي المراسلات».

أثبتت الأوراق صحة ما حاولت أن تحذره منه... ولكنها حذرته بشكل أخرق غير مناسب، وإلا لماذا جُرحت كرامته؟.

وفجأة، قال دايڤيد عفوياً: رأيتك في اجتماع «ديلاكورت»... يبدو أن العلاقة أصبحت جدية بينك وبين ليري؟.

فردت بسرعة: ما من شيء بيننا. كوّن البعض أفكاراً خاطئة ليلة الحفلة ثم كتبوا مقالات رفعت من سعر الأسهم. وأنا في انتظار اللحظة المناسبة لكي أتركه.

ـ أتعنين أن هذا كل شيء؟.

ـ هذا كل شيء.

ـ ليس هذا ما... انتظري لحظة! هذا الرجل في نهاية القاعة مدين لي ببعض النقود. أحاول العثور عليه منذ أيام. سأعود، فلا تذهبي.

بعد ذهابه، أخذت جينيڤر ترشف كأس المياه وتنظر حولها. وما لبثت أن لحظت شاباً غاية في الوسامة يتقدم نحو مائدتها، وقد بدا عليه شيء من التوجس. أخيراً سأل: «الآنسة نورثون؟».

ـ نعم، أنا جينيڤر نورثون.

ـ ذهبت إلى مكتبك، ولكنك كنت قد خرجت... أخبرتني سكرتيرتك أنك غالباً ما تأتين إلى هذا المكان. اسمي مايك هاركر.

هتفت: «رباه!».

ـ ربما تجدينني جريئاً وقحاً....

ـ لا، وإنما أذهلني أن أكتشف أنك موجودٌ حقاً في هذا العالم. اجلس.

قال وهو يجلس بجانبها: «شكراً».

ـ هل شفيت من الأنفلونزا؟.

ـ آه، لقد أخبرك ستيفن عن هذا... في الحقيقة لا أعرف مقدار ما تعلمين.

ـ لقد عرفت الحقيقة في الصباح التالي.

ردّ بسرعة: «كان يقصد أن يسدي إليّ معروفاً فيما أنا في مأزق. ثم... ثم من عادته أن يفعل أي شيء لأجل صديق».

ـ هل أخبرك كيف كانت السهرة؟.

ـ لا. لكنه كان يضحك حين عاد، لم يشأ أن يخبرني عن النكتة التي أضحكته. هل أزعجك كثيراً؟.

ـ أنا لا ألومك. ولن أقدم شكوى إلى المكتب إذا كان هذا ما يقلقك.

ـ لا، ليس ذلك، وإنما هذه.

ومد مايك يده إلى جيبه يخرج أزرار القميص الماسية ويضعها على المائدة، فقالت: لم لا تحتفظ بها؟ لقد قدّمتها لك.

ـ لكنك لم تقصدي ذلك. وهي أثمن من أن أقبلها.

قالت بحرارة: «إقبلها، أرجوك... إنني لا أقدم الهدايا لأعود فأستردها. لا أصدّق أنك قمت بكل ذلك المجهود لتعثر عليّ».

ـ كنت أتصرف وكأنني أمشي على قشور البيض... لا أدري ماذا سأجد ولكن لابأس... أنت ترافقين ذلك الشاب هناك، أليس كذلك؟.

ـ نعم، ولكن مايك، إذا كنت تظن أنني تورطت بعلاقة مع ستيفن، فإلى ماذا ستنتهي؟.

أجاب بابتسامة عريضة: «حسناً، لقد عرفت ستيفن»...

ـ هذا هو سبب سؤالي...

ـ أنا مسرور لأنك لم تتورطي بعلاقة معه... لم أره كثيراً خلال السنوات الخمس الماضية، لكنني لا أظنه تغيّر.

ـ هل تعرفه منذ مدة طويلة؟.

ـ التحقنا بالمدرسة الليلية معاً حيث درس هو إدارة الأعمال. كان شعاره على الدوام «أحبهن واتركهن». لم تستطع امرأة أن تحتفظ به... ولطالما فاخر بذلك. كنّ طبعاً يتهافتن عليه، لا أدري لماذا! لا أظنك تلومينه لأنه يشبهكن بالحافلات.

ـ الحافلات!!

ـ كلما مرت حافلة تتبعها أخرى.

سألته بعينين واسعتين بريئتين: هل هذا ما يقوله؟ غريب. عرفت شخصاً آخر يردد كلاماً كهذا. (العالم مليء بالنساء) هذا قوله... لكن المعنى واحد...

قالت ذلك وهي تشعر بانقباض رهيب في قلبها.

قال مايك: «لا أظن ستيفن كان جاداً تماماً في قوله ذاك. فالأمر بالنسبة إليه مجرد عبث. ما كان لي أن أخبرك، ولكنك مرتبطة برجلٍ آخر على كل حال... وهذا حسن».

قالت تحثّه: «نعم، حسن جداً، ويمكنك أن تخبرني بكل شيء... كان ستيفن لعوباً في تلك الأيام، أليس كذلك؟».

ـ سأكتفي بالقول إنه لطالما حصل على أيّة أنثى. هذا مؤسف في الحقيقة، يجب أن يتلقى ضربة يتعلم منها درساً... يا للهول! ما كان يجب أن أقول ذلك بعد أن انتشلني من مأزقي. لكن بإمكانه أن يؤثر عليك حقاً فهو واثق من نفسه إلى حد بالغ.

تمتمت: «نعم، إنه كذلك، ولكن قد يسقط يوماً ككل رجل آخر».

ـ إلا إذا تمكن من تجنب ذلك. يقول ستيفن إن ما من امرأة في العالم تستحق أن ينخدع بها رجل.

ـ هل هذا ما يقوله؟.

مالت إلى الخلف لتخفي وجهها في الظل وهي تحاول أن تحجب ردّة فعلها. اكتشفت أصابعها تطرق المائدة بتوتر، فتوقفت عن هذا. لماذا يفاجئها هذا الكلام وهي تعرف شخصية ستيفن؟ هذا إلى أن دايفيد هو الرجل الذي تحب!

تذكّر مايك: «ذهبنا إلى عرس مرة. وكان رائعاً ككل الأعراس. لكن ستيفن تملكه الذعر وقال إن الأعراس هي مؤامرة نسائية تحول الرجال إلى مهرّجين سخفاء مضحكين. وهو لن يسمح لذلك بأن يحدث له أبداً. يمكنك أن تتهمي أي شخص بالسخف إلا ستيفن. فهو دوماً في القمة. آه... ربما تكلمت أكثر مما يجب...».

وبدا عليه الشعور بالذنب.

قالت بمرح: هراء... لا ضرر في ذلك؟.

ـ ها إن صديقك عائد. من الأفضل أن أذهب.

فدفعت نحوه الأزرار، قائلة: «لا تنس هذه».

ـ إذا كنت تصرين... شكراً.

اقترب دايفيد من المائدة ثم أخذ يراقبه وهو يبتعد، بعد ذلك نظر إلى جينفر متهكماً: «أتراك تستخدمين هذه الأزرار «طعماً» لكل رجل في لندن، أم إلى أولئك الذين أراهم معك فقط؟ جينيفر... جينيفر؟».

إلتفتت إليه بسرعة: آسفة. ماذا قلت؟.

ـ هل وصلت إلى نتيجة؟.

قالت وعيناها تتألقان: «نعم... لقد قررت أن الوقت قد حان لأوجّه ضربتي».

***

٦ ـ سر اللعبة الخطيرة

عندما اتصلت جينيفر بستيفن تحدث إليها على الفور دون أن تنتظر.

هتف ببشاشة: جينيفر، يا لها من مفاجأة سارة!

ـ أما عليك أن تناديني حبيبتي؟.

ـ لا. فليس من يستمع.

فضحكت بصدق: «ما رأيك بعشاء في «ريتز»؟ أنا أدعوك».

ـ عظيم. أنا أعجبك من هذه الناحية... أرحب بالمرأة التي تدفع عني. كما أسمح لك بأن تقليني بسيارتك، ثم تعيديني بعد ذلك إلى بيتي.

ـ غداً مساء؟.

ـ عظيم.

ـ ستيفن، عليّ أن أعترف بأن دافعاً ما يحثني على ذلك.

قال راضياً: «إنني أعلم أنك لن تخيبي أملي».

ـ هل تعرف رجلاً اسمه «مارتسون»؟ إنه شخص سيء. لكنني أريد فقط أن أعلم مدى خطورته.

ـ إنه وحش مفترس* فهو لا يوفر جهداً من أجل إضعاف شركة ما، ثم يشتريها بثمن بخس. لكنني أعرف بعض الخدع التي يمكن استعمالها ضده، سأجمع لك معلومات للغد.

ـ أنا شاكرة لك حقاً.

قالت ذلك برقة مفرطة مما دفعه إلى الاستدراك.

ـ جينيفر، عندما تكونين بهذه الرقة البالغة، أشعر بالخطر. هل تهدفين

إلى شيء ما؟.

ـ من، أنا؟.

فضحك: «سأراك فيما بعد».

سرّت جينيڤر لنجاح خدعتها الصغيرة. أخيراً ستلقّن ستيڤن درساً. فما إن يجمع لها المعلومات التي تريدها، حتى تخبره أنها لمصلحة دايڤيد فيتعلّم عندها أن يتأكد من «حافلاته».

كانت تتحرق شوقاً لترى تزعزع ثقته حين يكتشف أنها خدعته بمثل أساليبه... كم ستستمتع بإغاظته...

في اليوم التالي تركت العمل مبكراً، لتستعد لتلك السهرة. اشترت ثوباً جميلاً مزيناً بخيوط ذهبية وهذه المرة لم تحاول الإدعاء بأنه ليس من أجل ستيڤن. لم يكن الزحام شديداً، فوصلت إلى بيته قبل الموعد بعشرين دقيقة. كان مبنى ضخماً عصرياً يقوم في شارع راقٍ.

أدخلتها ماود، وهي مستعدة بدورها لقضاء السهرة في الخارج. بدت جميلة بثوب حريري قرمزي اللون يبرز قوامها الرشيق.

قالت: «سينزل ستيڤن حالاً. هل تمانعين إن تركتك وحدك لحظة؟».

فتأملت جينيڤر جمال الفتاة ثم ابتسمت تقول: أرى أنك تستعدين للذهاب إلى موعد غرامي. لا بد أنه رجل مميّز.

دهشت عندما رأت ماود تتورد، وأخذت تسوّي ثوبها. أحبّت جينيڤر ماود، ولكنها تحبها أكثر الآن. وقالت ماود تجيبها: نعم، إنه مميّز جداً... والآن، أرجو المعذرة، عليّ أن أذهب.

وفجأة تناهى إليها من الأعلى صوت باب يُفتح، ثم أقدام تهبط السلم. وإذا بصوت ستيڤن يقول: ماود... هل لديك فكرة أين...

التفتت بسرعة. كان ستيڤن يقف في منتصف السلم يرتدي بنطلوناً ولكن من دون قميص: تسمّر فجأة عندما رآها بينما أمضت هي لحظة طويلة تنظر إلى كتفيه القويتين وصدره العريض.

بدا وكأن العالم توقف عن الحركة. بدا كل شيء في ستيڤن مليئاً بالحيوية

والنشاط. وتذكرت قول مايك: لطالما تهافتت النساء عليه، لا أدري لماذا....

لكنها تعرف الآن. وشعرت بأنها محظوظة بتحذيره ذاك. فقد تنجرف أية امرأة مع حماقتها في حب ستيڤن.

بدا أن ستيڤن فوجيء بدوره إذ أخذت عيناه تجولان فيها تتأملان جمالها بإعجاب بالغ، ثم جذب نفساً بطيئاً.

ـ لم أعلم أنك هنا.

ـ جئت مبكرة قليلاً. فحركة السير خفيفة.

فأجابها بغموض: «سأكون معك خلال دقيقة».

أخذت عينا ماود تنتقلان من أحدهما إلى الآخر وقد لوت شفتيها. ولكن لم يلحظها أي منهما.

وهنا تصاعد رنين جرس الباب، فاختطفت ماود وشاحها وهي تتمتم: «تصبحان على خير» ثم اندفعت خارجة.

عندما فتحت الباب، لمحت جينيڤر الطارق ودهشت للبهجة التي كست وجهه وهو يأخذ ماود بين ذراعيه، ثم اغلق الباب وراءهما.

ضحك ستيڤن حين رأى الاستفهام المرسوم على وجهها، ثم قال: هذا ما شعرت به أنا أيضاً. سأكون معك خلال دقائق.

عاد بعد خمس دقائق مرتدياً قميصاً ناصعاً كالثلج تتعارض أناقته مع خشونة الرجولة في وجهه. بدا وسيماً جداً.

شرد بها التفكير... إنه يعلم هذا، وهو يعتمد على ذلك في الواقع... آه، النساء كالحافلات... يا لها من صدمة سيتلقاها!

تصرف معها بشكل رائع. أذعن لها عندما قادت السيارة ولم يحاول أن يبعدها عن مقعد القيادة لكنه انتظر إلى أن علقت جينيڤر في الزحام الخانق، ليطلق قنبلته: لقد غيرت رأيي. لن نذهب إلى مطعم «ريتز»، إنني أفضل الذهاب إلى ناد ليلي.

ـ لكنني حجزت مائدة في «ريتز».

- آسف إذ سمحت لنفسي أن ألغي ذلك الحجز ثم حجزت في «نادي الأوركيد».

- حسناً، كان عليّ أن أعلم أنك ستقوم بعمل معيب متغطرس كهذا.

ولوت فمها بجفاء.

- نعم، كان يجب أن تعلمي. انعطفي إلى اليسار هنا.

- ولكن، أليس نادياً خاص بالأعضاء؟.

- وأنا عضو.

أوشكت على القول إنه مكان العشاق الحميمين لكنها غيّرت كلماتها:

- لا أريد الذهاب إلى نادٍ ليلي. إنه... لا أريد الذهاب إلى هناك. هذا كل شيء.

- لا تكوني ناكرة للجميل، لا سيّما بعد كل التعب الذي تكبّدته في جمع المعلومات عن «مارتسون» وكل هذا من أجل عينيك.

- حقاً؟ هل جمعت الكثير؟.

- ما يكفي لإثارة الإهتمام. والآن، هل سنذهب إلى «نادي الأوركيد»؟.

فقالت بسرور: «إلى آخر الكرة الأرضية».

- حذار مما تقولين، فقد اعتبره وعداً منك.

ضحكت. وفجأة، تملكها شعور رائع. ستكون ليلة بديعة لأنها، طبعاً، تتحرق شوقاً إلى هزيمته... وما إن دخلت «نادي الأوركيد» حتى أحست بالرهبة، حيا البوّاب ستيڤن بصفته زبوناً دائماً، لكنه ألقى على جينيڤر نظرة سريعة متفحصة وكأنها الأخيرة في صف طويل. لم يكن هذا ما تريده. لكن صبراً... سيحين وقت الانتقام تقريباً.

كانت مائدتهما في زاوية معتمة، يضيئها مصباح صغير. أجلسها ستيڤن على مقعدها، وبعد أن أبلغ النادل طلباتهما قال لها: حسناً، ها نحن هنا.

- نعم، ولكن... هنا...

وأشارت إلى ما يحيط بهما.

- المفروض أن أكون صاحبة الدعوة.

- وما الفرق؟ لقد تملكني الغرور حين تلهفت لرؤيتي.

- لا تخدع نفسك. أنا متلهفة لنصيحتك فحسب.

- بالنسبة إلى مارتسون؟ إنه سيء الأخلاق. لكنه ليس ضد نورثون.

- إنني أسأل عنه لأسباب بالغة الأهمية.

نظر إليها هازئاً. يظن أنها اختلقت حجة لتخرج معه وتستمتع بهذه السهرة.

سألها فجأة: «أين دايڤيد هذه الليلة؟».

تلعثمت لهول المفاجأة: «لا... لا أدري».

- ألا يعلم أين أنت؟ لا بأس... كان ينبغي أن يعلم. لو كنت أحب امرأة لسجنتها ومنعتها من القيام بلعبة من النوع الذي تلعبينه معي.

- ربما لا ترضى هي بأن تُسجن!.

فأمسك بيدها يقبل راحتها، هامساً.

- ربما بإمكاني أن أجعلها ترضى.

سكت عن الجواب. بالتأكيد يشعر بتسارع نبضها... إنها متأكدة من ذلك! ولم يكتف بذلك بل رفع رأسه وألقى عليها نظرة دمّرتها.

وأخيراً قالت: «إنك لا تعلم أسرار لعبتي معك».

- اعلم أنك تستغلينني لتشعريه بالغيرة. وكذلك لتزيدي من أرباح شركتك. هل هناك المزيد؟.

ابتسمت بغموض: «ربما».

- يا لك من شيطانة صغيرة. لا بأس. سأشترك في هذا... الأفكار الشيطانية تزيد المرأة جاذبية بل تكملها... ألن أعرف قواعد اللعبة؟.

- ستكتشفها عن طريق المحاولة والخطأ.

- وأنت؟.

- سأقررها أثناء تعاوننا.

ترك يدها ورفع كأسه وقد لاح الإعجاب في عينيه. بينما فكرت:

«بالتأكيد يظن أنه يسلك طريقاً غاية في السهولة ففي البداية تغيظه المرأة، ثم لا تلبث أن تقع بين ذراعيه».

لقد ألف هذا. لكنه سينال الليلة صدمة كبرى.

ـ لماذا تتألق عيناك بهذا الشكل الغريب؟.

ـ انتظر وستعلم.

ـ لا بأس، جينيڤر. إنها لعبتك، لكنني أحياناً لا أثق بك.

فأجابته بلهجة لاذعة: أما أنا فدوماً لا أثق بك. لا بد أن تعترف بأن ذلك يضفي على علاقتنا نكهة غريبة.

ـ هذا صحيح. فأنت لا تسببين لي السأم مطلقاً، على سبيل المثال. قولي لي كيف ستفاجئينني؟.

ـ إذا أنا أخبرتك، فلن تكون مفاجأة. دع ذلك الآن وأخبرني... هل تنكّرنا ناجح أمام الناس؟.

ـ يعتقدون أننا عاشقان قديمان!.

فقالت بدهشة: لا أعني علاقتنا بل سوق الأسهم. فهذا هو المهم.

ضحك معجباً بهذه الوخزة.

ـ إنها كذلك بكل تأكيد. ارتفع ثمن أسهم شركة «تشارتريز» بعد أن توقع السوق اندماجنا بكم.

فقالت مفكرة: اندماجكم بنا.. أشبه بـ (أكلنا أحياء).

ضحك وقال: لا أظنني أستطيع إقناعك بهذه الفكرة.

ـ آه، بل تظن هذا. كما تظن أنك خدعتني.

قال من دون أن ينظر إليها: هل أحاول القيام بذلك حقاً، جينيڤر؟.

ـ وهل من امرأة لا تحاول خداعها؟.

ـ وهل من امرأة لا ترغب في أن تُخدع؟.

ـ آه، نعم. وهي الآن أمامك. أنا أحب العلاقات الواضحة الصريحة.

ـ إذن فأنت تختلفين عن كل نساء الخليقة.

مالت إليه قليلاً من فوق المائدة، ثم قالت بصوت رقيق خافت: أنا لا

أتأثر بالمجاملات.

فمال هو الآخر إلى الأمام حتى كاد رأساهما يتلامسان: إذن، سأخبرك، وبصراحة، أنك أكثر النساء اللاتي عرفتهن إحساساً وعاطفة جياشة. ألاحظ دوماً في ملابسك شفافية خاصة. أعلم أنك لا تحبذين أن أثير هذه المواضيع... لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك... فعندما نتحدث لا أستطيع تركيز ذهني على الكلام لأنني دوماً أفكر فيك.

كانت كلماته تثير في نفسها سروراً عجيباً لكنها رفضت الاستسلام لذلك الإحساس. إنها، هذه الليلة، ستسيطر على نفسها.

سألته: أتظن نفسك قادراً على اغرائي؟

ـ وهل تظنين أنت ذلك؟.

ـ أبداً.

ـ أتراهنين؟.

ـ آخر مرة تراهنا فيها، غششتني.

ـ وسأغش مرة أخرى إذا كان هذا يعيدك إليّ.

ـ لكنك في العمل رجل نزيه.

ـ ربما ليس العمل بتلك الأهمية.

ـ يا للعار ستيڤن! ما من شيء أكثر أهمية من العمل.

بدلاً من الجواب، مدّ يده نحوها يلامس وجنتها... فدب الاضطراب في نفسها وراحت تتنفس بصعوبة. بينما تمتم يقول: لا أراك تعتقدين ذلك حقاً.

ـ كلا، بل أنت من يعتقد.

ـ يمكننا، إذا شئنا، أن نصب اهتمامنا على شيء آخر.

ـ شيء آخر؟.

ـ أعني نحن.

ها إنه يقع شيئاً فشيئاً. وابتسمت في نفسها.

سألها: «ما قولك؟».

فأجابت: «أقول إن النادل يقف وراءك مباشرة».

تجهم وجهه وهو يعتدل في جلسته بينما النادل يؤدي خدمته. كانت عيناه تتألقان في الضوء الخافت فتعيدان إليها ذكريات تمنت لو تنساها.

سألها وهو يبدأ بتناول الطعام: كيف حال الصغار؟.

سرت لأنه تطرق إلى موضوعها المفضل فأجابته: لقد فتحت القطط الصغيرة أعينها. وهذا الصباح خرج آخرها من الصندوق الكرتوني، وهو الذكر. يبدو أنه أضعف من أخواته.

ـ أهو الذي أطلقت عليه اسمي؟.

ـ نعم، مع الأسف... لكنه سيتحسن... تلك التي فتحت عينيها أولاً مشاغبة حقاً. إنها تركض في كل مكان، بينما الأخريات يجلسن على السجادة ويأخذن في المواء. ياه ما أجملها وأصغرها!!!

ضحك لمنظر وجهها وهي تهذر بهذا الشكل بينما عيناها تلمعان. لاحت في عينيها نظرة غير عادية... نظرة صريحة تنبىء بالعجز والضعف. فراح يتساءل: ترى من يكون حبيبها؟ طبعاً ليس هو. أهو دايڤيد؟ إنه مستعد ليعطي الكثير فقط لينال جواباً عن هذا السؤال.

فرغت جينيڤر من الحديث عن القطط، ثم تذكرت شيئاً آخر.

ـ لست متأكدة تماماً من الذي طرق بابك هذه الليلة؟ أهو «تريڤور؟».

ـ ليست مجرد تخيلات. إنهما مجنونان ببعضهما البعض. ألم يقل أي شيء؟.

ـ ولا حتى كلمة، لكنني لم أره إلا أثناء العمل. وفي المدة الأخيرة أخذ يترك مكتبه مبكراً... آه، هذا طبيعي!.

فقال ستيڤن ضاحكاً: «ألا أحصل على جائزة لأنني أخبرتك؟ ماذا عن مزاجه؟ فماود لا تفصح لي عن أي شيء».

ـ حسناً، بدا مشغول البال قليلاً. لكنه في العادة دائم التفكير.

ـ لا بد أنه يفكر في أختي حالياً... لكن لا تدعيه يتمادى كثيراً، فهي لا تتدلل عليه في الحقيقة.

ـ منذ متى تعلم ذلك؟.

ـ منذ الليلة الأولى. أخبرتني ونحن عائدان إلى البيت بأنها ستتزوجه.

قالت جينيڤر متأملة: «الحب من أول نظرة! لم أكن أصدق ذلك. أظن أن تريڤور وجد فتاة أحلامه أخيراً».

ـ ماذا تعنين؟.

قالت بعد تردد بسيط: عندما ماتت أمنا، تعلقنا ببعضنا البعض... كان في السادسة عشرة وأنا في الثانية عشرة. كنا متلازمين تماماً حينذاك، لكنه ما لبث أن أخذ يتسكع في الشوارع مع عصبة من الفتيان... وأظن كرامته منعته من أن يمسك بيدي مجدداً. وهكذا تركني ولم يعد إليّ قط. وأظنه بقي يبحث عمن تخفف عنه أعباء الحياة منذ ذلك الحين.

ـ ولكن جدكما كان دائماً إلى جانبكما.

ـ ليس كما تظن. كان يحبنا كثيراً، ولكنه ظلّ مشغولاً على الدوام.

سألها بفضول: «وماذا بالنسبة إليك؟ يد من أمسكت؟».

ـ لا أحد، كما أظن.

وخنقتها غصة وهي تستعيد ذكرى الليالي الطويلة الموحشة وهي تبكي أمها، وأباها، أو تريڤور، أو جدها... أوأي شخص.

ـ جينيڤر؟

قال ستيڤن ذلك برقة بالغة وهو يتأمل وجهها باهتمام مفاجىء.

عادت إلى الواقع، ورسمت على وجهها ابتسامة مشرقة. لم تكن تعلم أن ابتسامتها لا تبدو مقنعة، لكنها شعرت بستيڤن يمسك بيدها، يضغط عليها، يخفف عنها. مضت لحظة جلسا فيها صامتين.

سألها برقة: أتدركين ماذا عرفت الآن؟ أخبرتني به لتوّك! سرّ جاذبية دايڤيد كونر. أنت ترينه صلباً أهلاً للثقة.

ـ كان دائماً إلى جانبي حين أحتاج إليه...

ـ ليس الآن... لم يعد كذلك. لهذا أنت متعلقة به كما يتعلق غريق بخشبة.

فقالت بلهجة غريبة: «يبدو أنني متعلقة بك أنت».

ثم نزعت يدها من يده.

ـ الحقيقة أنك خائفة من الهجران مرة أخرى. فأنت لست مغرمة به على الإطلاق.

سألته: ولماذا أنشد الأمان؟.

ـ يمكنني أن أعطيك ألف سبب، لكنني سأكتفي بواحد فقط. أنت تريدين الزواج، وما يوفره لك من وهم الأمان. هذه هي جينيڤر نورثون الحقيقية... وراء تلك الأناقة والحنكة تختبىء فتاة صغيرة تبحث عن يد تتمسك بها في الظلام...

ـ حسناً، أنت لست من النوع الذي يحب الزواج.

ـ ولكنني أفضل، بالنسبة إليك، من دايڤيد، لأننا نفهم بعضنا. صدقيني يا جينيڤر، ستشعرين بأمان أكبر مع رجل يفكر ويشعر مثلك، حتى ولو ليوم واحد... أكثر من أمان كل حفلات الزفاف في العالم.

لم تعرف بماذا تجيب. كان قلبها يخفق بقوة ليحذرها من الخطر الذي يحدق بها وبأكثر مشاعرها عمقاً وسرّية.

وفي اللحظة التالية، توغل أكثر في أعماقها وقال بشكل فظ: لا ترغمي الرجل المسكين على الزواج بك جينيڤر... وإلا ندمت على ذلك بقية حياتك.

فأجابته بخشونة لتغطي اضطرابها: هذا كلام فارغ! لن أرغم دايڤيد على الزواج بي.

ـ بل أظنك تفعلين. وسأمنع ذلك إذا استطعت.

قالت متحدية: «وبعد ذلك تنبذني وترميني جانباً».

ـ بعد ذلك نجرب حظنا... قد لا أتركك بل قد تهجرينني أنت، فأقوم أنا بملاحقتك.

فتمتمت بشيء من الكآبة: «لا أظن ذلك».

ـ لا تقللي من قيمة نفسك وانسي دايڤيد، فهو لا يحبك. ومفهومه عن

الحب محدود كمفهومك.

قالت محذرة: «لندع هذا الموضوع جانباً، يا ستيڤن. أنا أعني هذا».

رد بعد لحظة: لابأس. لكنني سأكتفي بهذا فقط.. لا بد أن تتخلصي من هواجسك بشكل ما، لكن دايڤيد ليس بالملاك المنقذ.

فضحكت: «يا لك من رجل صعب».

سألها وهو يميل نحوها: «ماذا في تعابير وجهك؟ لا يمكنني رؤيته في هذا الضوء الخافت».

ـ هذا حسن. كلما قلّ ما تعرفه عني، كان ذلك أفضل.

ـ لا تقولي بأنك خائفة مني؟.

فهتفت بسرعة: «لا. ليس منك ولا من أي رجل».

لم يقل شيئاً، وإنما استغرق في تأملها للحظة. فكر كم تبدو فاتنة عندما يتصاعد الدم إلى وجنتيها، فيمنح ملامحها مزيداً من البهاء والحيوية.

قال: «يسرني أن تخبريني عن والديك، فهذا يوطد معرفتي بك. ظننتك تعيشين حياة سهلة مريحة، وتعملين في شركة جدك لمجرد التسلية».

ـ أنا لا أجد فيها تسلية بل أفضل العمل مع الحيوانات ولكن كيف أخبر جدي بذلك؟.

ـ بسهولة. لو كان يحبك حقاً لسره أن تحققي ما تحلمين به. إنه يحبك أليس كذلك؟.

ـ طبعاً.

ـ ولكن أيحبك فقط لأنك تنفّذين أوامره؟.

ـ لا يحق لك أن تقول هذا.

ـ ولكن ألا تعتقدين ذلك؟.

فقالت بشيء من القنوط: كفاك تشويشاً لذهني.

قال بهدوء: «لابأس. آسف».

وسألته بدورها: «ألا تجد تسلية في عملك؟».

ـ أحياناً الآن، وليس في بداياتي.

ـ أتمنى لو تخبرني عن ذلك.

تردد متضايقاً، فتكهنت بأنه يفضّل ألا يفضي للآخرين بأسرار العمل... ربما لأنه لا يثق بأحد ما عدا ماود شقيقته. لكنها تعلم أنها إن تجاوزت ذلك الحاجز لتقدمت خطوة إلى قلب هذا الرجل.

أخيراً قال: «إنك تذكرينني بأمي بشكل غريب. لقد عانت من حياة شاقة للغاية، لكنها لم تدع اليأس يهزمها قط. وكنت أنت هكذا. ذهبت إلى تلك المأدبة الرسمية متأبطة ذراعي، متحدية العالم بأجمعه ولم تكشفي لأحد مقدار تعاستك. لم أعجب بأحد قط كما أعجبت بأمي. فقد واجهت سوء حظها بشجاعة، وروح مرحة... كم تمنيت لو أنها عاشت لتراني ناجحاً في حياتي، لأمنحها شيئاً من ملذّات الحياة».

ـ وماذا عن أبيك؟.

ـ مات عندما كنت في الرابعة عشرة. وكانت أمي، حينذاك، حاملاً بماود. أنا الوالد الوحيد الذي عرفته ماود.

توسلت إليه جينيڤر: «أخبرني المزيد عن أمك».

ـ كانت عظيمة، مع أنني لم أخبرها بذلك حينذاك. بعد موت أبي أصبحت أنا رجل الأسرة. لكن أمي استمرت تراني طفلاً. وكنا نتشاجر أحياناً لهذا السبب... ثم وجدت عملاً كموزع صحف. واعترفت بأنني رجل حين وجدت عملاً آخر... عملت في صف المواد الغذائية على رفوف «سوبر ماركت» في عطلات آخر الأسبوع.

ـ هل أجبرتك على العمل وأنت في الرابعة عشرة؟.

ـ أنا لم أسألها. قمت بواجبي فقط.

ـ وماذا عن تعليمك؟.

ـ تمكنت من ترتيب الأمر. تركت المدرسة مبكراً، واتخذت منصة في السوق أبيع عليها كل ما أشتريه بثمن بخس. وعندما وفرت مبلغاً كافياً، اتخذت منصة أخرى.

ـ وكيف تحولت من منصات البيع في السوق إلى صاحب

شركة «شارتيريز»؟.

ـ تلقيت دروس العلوم التجارية في معهد ليلي. ثم عملت في متاجر صغيرة، وفي النهاية أصبحت صاحب ثلاثة محلاّت. لكنني كنت طموحاً، فبعتها ثم حصلت على عمل في شركة «شارتيريز». واشتريت بثمن المحلات أسهماً فيها، وبعد عشر سنوات توليت إدارة الشركة... في البداية رفضوا توظيفي، فقد حسبوني مجردّ غلام يجر عربة.. وكنت كذلك فعلاً. ولكن لم يستطع أحد غيري أن يجرّهم إلى تحديث الشركة.

بدا اعتماده على نفسه أكثر من مجرد غطرسة، فهذا الرجل يعلم أنه ولد ليحكم. ولا حاجة لمزيد من الكلام.

وتابع: «وعلى مرّ السنين، اخترت التعامل بالأسهم وهكذا اشتريت المزيد منها كلما استطعت».

ـ وهكذا تسيطر الآن على الشركة.

ـ هذا صحيح، وأملك المال أيضاً. وهذا مهم جداً. فقد عشت الشقاء في الفقر، وعرفت كيف يضعف الفقر المرء ويسيطر عليه. كنت أستلقي في فراشي متسائلاً هل سأحصل على أجري قبل أن يحلّ أجل دفع ديوني، وإذا لم يحصل ذلك فكيف أتخلص من المأزق. فكر الكثيرون في زيادة أعبائي، لأنهم لا يرون فيّ إلا مجرد غلام صغير... فكان عليّ أن ألقنهم درساً قاسياً لكي يدركوا خطأهم.

ـ درساً قاسياً؟.

فقال ببساطة: «ما من وسيلة أخرى... فإن أردت الثأر، عليك أن تنتقمي بقوة حتى لا يتحدّاك عدوك ثانية».

كان يتحدث بطريقة الأمر الواقع مما بعث القشعريرة في جسد جينيڤر.

فقالت: «أنا مسرورة لأنني لم أتخذك عدواً».

فنظر إليها مستغرباً: «وأنا أيضاً مسرور لأنك لم تفعلي ذلك».

***

٧ ـ أحزانٌ عند شاطىء البحر

تركته يقود السيارة في طريق العودة، ورضيت بالجلوس بجانبه فيما السرور يغمرها. قال: هذا يمنحني فرصة لزيارة «مخالب» وأسرتها. الفضول يتملكني لرؤيتها بعد أن وضعت.

ما إن وصلت جينيڤر إلى بيتها حتى اندفعت إلى صندوق القطط. ولكن لم تجد أي منها من بيتها.

ناداها ستيڤن وهو يلتقط قطيطة من خلف الأريكة: هذه واحدة هنا، وأخرى هناك.

فضحكت: «ما دامت القطيطات خرجت من الصندوق فلن أعرف كيف أعثر عليها أبداً».

وبرزت «مخالب» من المطبخ وانضمت إليهما في البحث. وسرعان ما عادت القطيطات جميعاً إلى بيتها. فأعد لها ستيڤن حليباً ساخناً، وقهوة له ولجينيڤر. وما لبثت جينيڤر أن شعرت بأنها هي نفسها قطة، قطة راضية قانعة وهي تتمطى وتشعر بالغبطة وكأن كل شيء في العالم على ما يرام.

قال ستيڤن: «بالمناسبة، لقد نسينا شيئاً».

ـ أحقاً؟.

ـ مارتسون. أردت معرفة كل شيء عنه لكننا لم نتحدث عنه... على الإطلاق.

صدمت وهي تتذكر أنها لم تكن تريد الخروج مع ستيڤن ليري إلا لتوقفه عند حده ولتحدّ من غطرسته... بدا لها ذلك أمراً سخيفاً وعبث تلميذة

صغيرة... لقد علمت هذه الليلة أشياء ضاعفت من اهتمامها به وتركته يتغلغل إلى أعماقها ليلامس مشاعر ما كانت لتسمح لأحد بالاطلاع عليها. أما الآن فلم تعد تريد أن تعلمه درساً.

سألها: «أتريدين التحدث عن ذلك الآن؟».

فردت متلعثمة: لا، لا. في وقت آخر. إنه ليس مهماً.

فأجابها وهو يأخذها بين ذراعيه: لا، ليس مهماً.

بدأت تشعر بالخوف منه... مع أنها لطالما اشتاقت لهذه اللحظة... فقد بات في نظرها إدماناً سيئاً وخطراً... ولكن من المستحيل مقاومته. ستدفعه عنها في المرة القادمة. لكنها، الليلة، يجب أن تعانقه بكل لهفة وحرارة... هذه المرة فقط.

ولكن، كما هي حال كل المدمنين، لا وجود لشيء اسمه (هذه المرة فقط). عناق واحد أصبح آخر ثم آخر ثم عناقاً لا نهاية له.

تمتم يقول: «أريدك، وأريدك أن تريديني».

ـ إنك تعلم أنني... لا أدري... يا ستيڤن...

لكن الكلمات تبخرت في الهواء. كان ذهنها مليئاً بصور ستيڤن كما رأته في بداية المساء، بعضلاته القوية وكتفيه العريضتين. لقد تملكها الشوق إلى عناقه منذ تلك اللحظة.

رأت عينيه المثقلتين بالعاطفة تنظران إليها بشكل غريب مرتبك. ثم قال بصوت أجش: أنت دوماً أجمل مما أتذكر.

أدركت أنه سيصعب عليهما التوقف عند هذا الحد. فهي تندفع بطيش ورعونة تقودها مشاعر تغمر كل كيانها، ومع ذلك...

كانت الكلمات التي صدرت عنها آخر ما توقعت التفوه به:

ـ ستيڤن... ستيڤن، لا...

أحست بالجهد الذي بذله ليتحكم في نفسه ثم قال بصوت مزقه التوتر: «ماذا جينيڤر؟ ماذا حدث؟».

ـ لا أدري... لقد حدث كل شيء بسرعة... لست مستعدة لهذا

الأمر . . .

انكمشت أمام ثورته المفاجئة . كان وجهه بالغ الشحوب لكنه تمكن من السيطرة على نفسه .

تركها ببطء وألم . وحالما ابتعدت عنه ، أشاح بوجهه وهو يرتب شعره بأصابعه .

قال بذهن شارد : «آسف» .

أدهشها قوله كصدمة انفجرت في رأسها . . . ستيفن لبري يعتذر؟ يبدو وكأن الكواكب توقفت عن الدوران .

قالت مرتبكة : «الذنب ذنبي فأنا لا أعرف ماذا أفعل» .

ـ لندع هذا الجدل العقيم . لا أظنني أتحمّل هذا حالياً .

وضحك متوتراً : «ليس من عادتي أن أخطىء في تقدير الأشياء إلى هذا الحد» .

فقالت متلعثمة : «لست المذنب . . . بل أنا . . . أنا التي غيرت رأيي . . . لا أدري لماذا» .

ـ سأذهب الآن إذا شئت .

ـ نعم . الأفضل أن تذهب .

تمنت لو تدعوه للبقاء ، لكن لا! عليها ألا تقوم بذلك . بعد لحظة سيكون خارج البيت وتنتهي علاقتهما وهذه المرة . . . إلى الأبد! .

وإذا برنين الباب يجفلهما فأخذا ينظران متسائلين . ثم تمالكت جينيفر نفسها وفتحت الباب فظهر رجل وامرأة في الأربعينات من العمر ، ومعهما فتاة في حوالي العاشرة .

قالت المرأة : «نأسف لإزعاجكما في مثل هذه الساعة . اتصلنا بك مرات كثيرة هذا المساء لكننا لم نجدك . ينبغي أن تكون «بريندا» في فراشها منذ ساعات . . . لكننا لم نستطع أن نكسر قلبها ما دام هناك أمل في استعادة «ثلجية» .

سألتها جينيفر وقلبها يهبط : «ثلجية؟» .

ففسرت الفتاة : «إن مخالبها بيضاء كالثلج رغم أنها سوداء برمتها» .

ثم أشرق وجهها بابتسامة مبتهجة وهي تصيح : ثلجية!!

واندفعت إلى الداخل تحتضن «مخالب» التي هرعت نحوها هي الأخرى . وبابتسامة متكسرة ، أدخلت جينيفر الوالدين .

جرى تعارف سريع . كان السيد والسيدة «كرانمر» مسلحين بصور عائلية تظهر القطة «مخالب» أو «ثلجية» بين ذراعي الفتاة . ما من شك . . . إنهم أصحاب القطة الأصليين! وما إن اكتشفت الصغيرة بريندا القطيطات الأربع حتى احتضنتها بسعادة غامرة .

قالت السيدة «كرانمر» : «إننا نعيش على بعد أربعة شوارع من هنا . وقد أخبرنا أحد جيراننا أن شخصاً ما في هذه المنطقة قد آوى في بيته قطة سوداء ذات مخالب بيضاء . . . لكنه لم يكن واثقاً من اسمه فرُحنا نطرق الأبواب في جميع الأنحاء حتى أخبرنا البعض عنك . الحمد لله أنها كانت آمنة معك» .

قال السيد «كرانمر» : «اسمحي لنا أن نسدد أجرة البيطري» .

فأجابت جينيفر : «لقد وصل البيطري بعد الوضع لكن ستيفن قام بكل شيء» .

حول أكواب من القهوة تحدثا عن قصة تلك الليلة وضحكوا كثيراً . لكن ستيفن لاحظ أن ابتسامة جينيفر كانت مصطنعة نوعاً ما . تلاقت أعينهما فبدت عيناه مليئتين بالعطف والتفهم .

عندما حان وقت انصراف الزائرين ، قفزت «ثلجية» إلى حضن جينيفر وأخذت تلامسها برأسها وهي تموء مواء لطيفاً .

قالت بريندا : «إنها تشكرك . . . إنها تحبك» .

فردت جينيفر بصوت أبح : «وأنا أيضاً أحبها ، وأنا سعيدة جداً لأنها عثرت على أسرتها» .

فقالت بريندا : «لكنك ستكونين وحدك . أتريدين واحدة من قطيطاتها؟» .

ورفعت الذكر الذي كان لونه يماثل لون «ثلجية» تقريباً ، وهي تقول :

سأحضره إليك عندما يستطيع أن يستغني عن أمه.

هزت جينيڤر رأسها مكرهة: «أود ذلك من كل قلبي. ولكن ليس من العدل أن أتركه وحده في البيت بينما أنا أعمل طوال النهار. كان الأمر مختلفاً مع مخا... ثلجية. فهذا المكان أفضل لها من الشارع لكن لهذا الصغير خيارات أفضل».

سألتها بريندا: «ألا تريدينه؟».

ـ نعم، أريده طبعاً، ولكن...

وتهدج صوتها فقالت السيدة كرانمر برقة: «إننا نتفهم ذلك».

نظر إليها ستيڤن وهي تقفل الباب خلفهم، فرأى كيف انحنت كتفاها. لم تلتفت إليه بل ذهبت سريعاً إلى المطبخ.

استدعى ستيڤن سيارة أجرة. كان يمسك بالهاتف وانتباهه منصبٌ على المطبخ. وسمع صوتها وهي تنفخ أنفها في منديلها.

وحين عادت قال لها: «سيصل التاكسي بعد دقيقتين».

ـ هذا حسن.

قالت ذلك بابتسامة مشرقة لكنه علم أن ابتسامتها سرعان ما تخبو حالما يخرج... وتعود إلى وحدتها... من دون قطط... من دون دايڤيد، من دونه هو، من دون أحد. وأدمى ذلك قلبه. اندفعت من بين شفتيه كلمات عفوية: إقضي نهار الغد معي جينيڤر.

أجابت متلعثمة: «لدي... لديّ اجتماعات طوال النهار».

ـ إلغيها. خذي يوم إجازة وتعالي معي إلى شاطىء البحر.

ـ شاطىء البحر؟

قالت ذلك وهي لا تصدق ما تسمع.

ـ أريد أن آخذك إلى «هانتلي» وأريك مكان نشأتي. دعينا نصاب بالجنون.

ـ آه، نعم. فلنصب بالجنون!

قالت ذلك ببهجة بالغة وكأنها صبية صغيرة.

ـ سأقلك عند الثامنة من صباح غد. لا تتأخري. تصبحين على خير.

بعد ذهابه أخذت جينيڤر تذرع أرض الغرفة باضطراب، وهي تحاول تنظيم أفكارها...

لماذا تملكها الذعر؟ ربما لأن الشوق إلى ستيڤن حين يجتاحها يصبح أقوى منها، ويمزق الحياة المستقرة التي لطالما انتظرتها منذ وقت طويل، منذ كانت صبية صغيرة وحيدة مهجورة.

في صباح اليوم التالي، لم تكن متأكدة من حضوره. ولكن في الثامنة إلا خمس دقائق سمعت طرقات على بابها. فتحته وإذا بها تجد رجلاً كادت ألا تعرفه. ستيڤن ليري في قميص ملون تزينه مربعات، ومن دون ربطة عنق، يبتسم كصبي متشوّق إلى نزهة ممتعة.

كانت هي أيضاً ترتدي بنطلوناً وقميصاً تبني اللون ما كانت لترتديهما للعمل... وقد عقدت وشاحاً حريرياً أحمر حول عنقها وعلقت في كتفها حقيبة منقوشة من القماش.

سألها: «ألست جاهزة بعد؟».

أجابت: «ما زلت بحاجة إلى عشر دقائق».

هي كلمات عادية تبادلاها، لكن وراءها يكمن توتر.

لكنهما، على كل حال، تمكنا من تغطية التوتر ببضع كلمات عادية.

وما إن جهزت للخروج حتى قال: ملابسك مناسبة تماماً لقضاء نهار على شاطىء البحر.

ـ حسناً، أرجو أن يكون شاطئاً حقيقياً، تكسوه الرمال الذهبية وتعلوه خيمة فيها رجل يبيع الآيس كريم.

ـ آسف لأن الشاطىء مغطى بالحصى، ولكن أظن خيمة الآيس كريم ما زالت هي هي.

حين انطلقت بهما السيارة، قالت جينيفر: عندما كنت صغيرة، اعتاد والداي أن يأخذانا، أنا وتريڤور، إلى شاطىء البحر. تلك الرحلات ما تزال شموعاً مضيئة في ذاكرتي. كانت الشمس مشرقة والآيس كريم لذيذاً على

الدوام، وأنا وتريڤور نتشاجر. فالرابح هو من يبني قصراً رملياً أعلى من قصر الآخر.

- أراهن على أنك كنت تربحين دائماً.

- ليس دوماً. لكنه اعتاد على الغش.

- بمناسبة الحديث عن تريڤور، لم تعد ماود إلى البيت ليلة أمس... وذلك لأول مرة. أظن علينا أن نستعد لحفلة الزفاف.

- هل أنت جاد؟.

- أنت لا تعرفين أختي عندما تصمم على شيء. إنها رهيبة.

كانت جينيڤر على وشك الجدال عندما تذكرت وجه تريڤور وهو يأخذ ماود بين ذراعيه. كان يبدو عليه الوله والخضوع.

سألته بشيء من الاضطراب: «هل قلت إنها قررت أن تتزوجه منذ تعارفا؟ ولكن هل حبها ذاك حقيقي؟».

- ولماذا فكرت في الزواج منه إذن؟.

- حسناً، يحين وقت في حياة كل عارضة أزياء...

وسكتت جينيڤر بلباقة. فقال ستيڤن: إنها لا تتزوجه طمعاً في أمواله، إذا كان هذا ما تظنينه... لقد اكتسبت الكثير من المال من مهنتها. ألا تؤمنين بالحب من أول نظرة؟.

فسألته بحفلة: «وهل تؤمن به أنت؟».

- إنني أؤمن بشيء ما من أول نظرة. أما الحب... ترى ماود في هذه الكلمة معانٍ عميقة أما أنا فأظنها تكسب معنى جديداً في قلب كل إنسان.

- لا أظنك تعلم ما تعرفه ماود عن هذه الكلمة. من الواضح أنها اكتشفت في تريڤور شيئاً خفي عنا نحن. ربما هي البصيرة الغريزية التي يسمّونها الحب. فالمحبون يمنحون الشخص الآخر كل ثقتهم ويرونه على حقيقته عارياً عن كل زيف. إن اختبرا ذلك، فأنا أحسدهما.

- ولكنك عرفت ذلك مع دايڤيد.

- أنا ودايڤيد نحب بعضنا... لكنك تعلم أن الأمر ليس بهذه

البساطة... وهو لا يخلو من تعقيدات، كما هو الحال مع تريڤور وماود.

قال بلطف: «إن كانت فيه تعقيدات، فلعله ليس حباً على الإطلاق».

- لن أتخلى عن حبه لأننا نواجه بعض الصعوبات، فلكل المحبين مشاكل. لكننا سوف نتخلص منها. هل ما زالت «هانتلي» بعيدة؟.

أجاب وقد تقبل تغيير الموضوع.

- ما زال أمامنا ستون ميلاً. إنه مكان صغير أو هكذا كان عندما رأيته آخر مرة. ليس مكاناً مفضلاً لإجازات الأسرة فالحصى تغطي الشاطىء بأكمله... لذلك بقي هادئاً. فأصبح ملاذاً يقضي فيه كبار السن فترة تقاعدهم. في صغري كنت أراه مكاناً هامداً بلا حياة، لكنني بلغت سناً قدرت فيه جوه المسالم الهادىء.

أخذت تحدق إلى يديه القويتين على عجلة القيادة. كانتا أمس تضمانها إليه بعاطفة محمومة، ومع هذا رفضته. أتراها مجنونة؟.

بعد فترة قصيرة، لفحها الهواء المالح، فأدركت أنهما اقتربا من البحر.

صرخت كفتاة صغيرة: «ها قد وصلنا. لقد لمحته من خلال الأشجار».

كانت المياه تتألق تحت أشعة الشمس. فتملكتها تلك البهجة القديمة. وسرعان ما ظهر البحر لعينيها، ولمدة أطول هذه المرة. وأخيراً أصبحا على الطريق الساحلي والشاطىء بمحاذاة الطريق.

وقعا على مطعم جيد يقدم الأطعمة البحرية، فجلسا قرب النافذة يستمتعان بالمناظر. قال: أرى هنا أناس أكثر مما أتذكر. أصبحت «هانتلي» أكثر ازدهاراً. هذا من حسن حظ «دان ماركام».

- ومن هو دان ماركام؟.

- إنه صاحب المتجر الذي عند الزاوية. هناك عملت للمرة الأولى، كموزع صحف على البيوت. ما زلت أرتجف كلما تذكرت كيف كنت أنهض في السادسة صباحاً أيام الشتاء الباردة. لكنه كان دوماً يعطيني شراباً ساخناً قبل أن أبدأ عملي، وأيضاً بعد عودتي. كان رجلاً طيباً.

لم تسمعه جينيڤر يتحدث بهذه الحرارة عن أي شخص من قبل، فقالت

لكي تبقي على رقة مزاجه هذه: حدثني عنه أكثر.

ـ كان أشبه «ببابا نويل» بلحيته الكبيرة والغمزة في عينيه. وكان كريماً إلى حد الطيش. فلطالما دفع لي أكثر من الأجر المعتاد، ورفع أجري عندما ماتت أمي.

قالت باسمة: «يا له من رجل أعمال رديء».

ـ وفظيع. كان يدين الزبائن، ثم لا يلبث أن يمحو الدين لأنه يظنهم فقراء.

ـ شيء مخيف. أظنك ألقيت عليه محاضرة في الكفاءة والتدبير.

ـ لقد فعلت ذلك. ما زلت أسمع نفسي الآن، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، أقول: إنك تفقد بذلك الحد الأدنى للربح، يا سيد ماركام. فنظر إليّ بجمود، قائلاً: «لا أعرف ما هو الحد الأدنى يا فتى... أنا فقط أشتري وأبيع». عندما كانت زوجته حية، اهتمت هي بالحسابات، وبعد فترة استلمتها أنا. حينذاك اكتشفت كم استفادت أمي من إحسانه.

أنهى كلامه بجفاء... وقد أظلمت عيناه، وكأنه ما زال يتألم للذكرى.

قالت جينيفر: «لا بد أنك سدّدت كل قرش».

نظر إليها فجأة مجفلاً: «هل أنا شفّاف إلى هذا الحد؟».

ـ حسناً، أظنني بدأت أعرفك قليلاً.

ـ نعم. أظن ذلك. لقد جمعت ما كنا مدينين له به، ثم رفضت أن أتقاضى أجري منه حتى سددت ديني، كل شيء. لقد قامت بيني وبينه مشاحنات رهيبة لأجل هذا الأمر، لكنني انتصرت.

تمتمت تقول: «طبعاً».

ـ أعدت له نقوده. ثم حاولت أن أعلمه درساً في التجارة لكنني لم أستطع ذلك قط. لقد تراجعت أحوال المتجر لسنوات، لكنه لم يفهم السبب.

أخذت جينيفر تنظر إليه وقد سلبها عقلها. إن لستيفن ليري قلباً. ليس عاطفياً ولا يذوب شفقة، وإنما هو عضو صلب قوي يتصرف بغرابة لكنه صالح ونزيه، ورقيق أيضاً. كان قلباً تزداد رغبتها في معرفته، وربما في تملّكه

أيضاً.

سألته: «هل فقد متجره في النهاية؟».

ـ تقريباً. من حسن الحظ أن شخصاً ما تدخل وأنقذه من المستنقع.

ـ هل من جائزة لمن يتكهن باسم ذلك الشخص؟.

بعد لحظة بدت على وجهه ابتسامة عريضة يخالطها بعض الخجل: «نعم، لابأس. أنا ذلك الرجل. صادف أن مررت بالقرب من هانتلي منذ سنوات قليلة، فذهبت لأراه. كان مرغماً على ترك المحل. وبما أنني رجل أحب دفع ديوني، فقد منحته قرضاً».

ـ وهل استطاع تسديده؟.

هز رأسه ضاحكاً: «كان عليّ أن أمحوه. فالتعامل على الورق شيء مزعج».

ـ تختلق أعذاراً. أنت شغوفٌ به... إنه مجرد ضعف بشري.

ـ لا أعاني من أي ضعف بشري. فلست من النوع الودود على كل حال.

ـ قد يكون «المخالب» رأي مخالف بهذا الشأن.

ـ ساعدت القطة تلك الليلة لأحول دون إصابتك بانهيار عصبي فقط لا غير.

ـ إنك مخادع، فوراء هذا المظهر الفولاذي...

قاطعها: «يخفق قلب من فولاذ. لا تنسبي إليّ مزايا تذوب رقة. كنت مديناً لذلك الرجل العجوز. هذا كل ما في الأمر».

ـ كما تشاء!

وعندما عادا لمتابعة الرحلة، دخلا الأرض الزراعية فترة عادا بعدها فجأة إلى الطريق الساحلي.

قال ستيفن: «المباني السكنية هذه جديدة. يا لها من شقق قبيحة».

تابعت جينيفر نظراته نحو الأفق، فأبصرت معدات ضخمة بين المباني. كما تناهت إليها موسيقى صاخبة... ولمحت أضواء متألقة.

قال ستيفن متأوهاً: «تلك المباني الوحشية جديدة. يبدو وكأن المقاولين

قد دخلوا المكان».

وفيما هما يقتربان من «هانتلي»، توضّحت لهما آثار المقاولين الهمجية... فالأبنية العصرية تنتشر في كل مكان، والمتاجر المضاءة متناثرة في أماكن النزهة. كما أصبحت المدينة الصغيرة مزدحمة بالناس.

قال بقلب مثقل: «ليس هذا المكان الذي عرفته، ولكن لماذا يتوافد الناس إلى هنا فجأة؟».

وبعد ذلك بدقائق جاءهما الجواب حين شاهدا الكازينو الضخم.

قال البواب: «إنه يجذبهم من مسافة أميال. يبقى مفتوحاً على مدار الساعة. والأطفال شغوفون به».

فقال ستيڤن بذعر: «أراهن على أنهم كذلك».

فذكّرته جينيڤر: «إنه استثمار جيد».

فرد ببطء دون سخرية: «ليس بالنسبة إليّ. كل ما أرجوه هو أن يستفيد «دان» العجوز من هذا».

أخذ يفتش عن متجر الزاوية. وشعرت جينيڤر بالإرتياح وهي ترى متجراً متألقاً يحمل اسم: (وكالة صحف ماركام).

قال ستيڤن بارتياح: «لقد نجح أخيراً».

ـ الفضل لك.

أمسك بيدها وأخذا يركضان إلى الداخل وهو يقول: فلندخل ونفاجئه.

كان شاب يقف خلف منضدة الاستقبال، فسألهما باسماً برقة: «أمن خدمة، يا سيدي؟».

فسأله ستيڤن: «هل دان ماركام هنا؟».

ـ دان..؟ آه، تعني العجوز ماركام. أظنه سافر إلى كندا.

سأله ستيڤن بذعر: «أتعني أنه ذهب في إجازة؟».

ـ كلا. لقد باع المحل.

ـ باع المحل؟ لكن الاسم...

ـ آه نعم... لم يتغير اسم المحل لأن الناس جميعاً يعرفونه. لكن الواقع

أنه الآن ملك لأصحاب سلسلة من المحلات... وقد اشتروه من دان ماركام.

سأله ستيڤن عابساً: «أتعني أنهم أخرجوه بالقوة؟».

ـ لم يحتاجوا إلى ذلك. فقد كان متلهفاً للبيع بعد أن تنازل له دائنه عن الدين... لقد انخدع الأحمق به... وبعد ذلك بأسبوع باع دان هذا المحل، قائلاً إنه يريد أن يأخذ المال ويهرب.

قال ستيڤن ببطء: «فهمت... نعم، فهمت».

ثم خرج من المتجر ببطء وتبعته جينيڤر. كان وجهه شاحباً وكأنما تلقى صدمة. واكتشفت أنها تأسف لأجله.

حاولت أن تتأبط ذراعه. لم يسحب ذراعه منها، لكنه لم يساعدها على ذلك. كان يسير في الشارع منكّس الرأس متجهم الوجه، وقد بدا ضائعاً في عالم من الغضب.

سألته بحنان: «إنه أمر يهمك، أليس كذلك؟».

ـ نعم، يهمني... لا أدري لماذا ولكن.. نعم، يهمّني كثيراً.

استرخت ذراعه أكثر فأمسكت بها جيداً وهي تقول: «دعنا نتنزه سيراً على الأقدام».

عبرا الشارع ونزلا إلى الشاطىء. وجدا بعض السابحين، لكنهم كانوا نادرين. فهذه الأيام يأتي الناس إلى هانتلي للمقامرة والتسلية الصاخبة. أما فردوس الهدوء والسكينة النفسية التي لطالما عاشت في ذهن ستيڤن فقد تلاشت إلى الأبد.

انعطفا عند رأس بحري إلى أن وصلا إلى خليج صغير، مقفر. وقف ستيڤن فجأة، ثم أمسك بقبضة من الحصى وأخذ يقذف بها بعنف إلى الماء... وكأنه يرمي معها مشاعره كلها.

قال بمرارة وهو يستعيد كلام ذلك الرجل.

ـ بعد أن انخدع به... أي بعد أن خدعني..!.

ـ لماذا يهمك أمره إلى هذا الحد؟.

ـ بعد ذلك بأسبوع! لا بد أنه كان مصمماً على البيع! لقد استغلني!

ـ يبدو وكأنه تعلم أخيراً شيئاً منك!.

نظر إليها مكشراً، لكنه، بعد لحظة، لف ذراعه حول كتفيها بينما وضعت هي ذراعها حول خصره وأخذا يسيران صامتين. بقيا على تلك الحال وقتاً طويلاً... لكنها رضيت بهذا القدر. مرّ الوقت بسرعة، فأدركت أنهما قطعا مسافة طويلة. أصبحت المدينة خلفهما أما هما فأصبحا وحيدين على الشاطىء لا رقيب لهما... سوى الأمواج.

ألقت ذراعيها حول عنقه ونظرت إلى وجهه وهي تقول برقة: لا تتألم.

لكنه كان يتألم. والأسوأ أنه ليس معتاداً على الألم الذي يتبع الصحوة من دنيا الخيال، ولا يعرف كيف يواجه ذلك. غمرتها موجة من الحنان والارتباك والقلق. فهذا ما كانت تشعر به نحو دايڤيد... إنه شيء يشبه الحب إلى حد خطير، وهي التي عاهدت نفسها ألا تقع في حب ستيڤن ليري أبداً.

وازداد اضطرابها حين سمعته يقول: أنا مسرور لأنك كنت إلى جانبي عندما اكتشفت الأمر.

سمعت صدى صوت آخر، صوت رجل آخر، ضعيف قلق، يقول كلمات مماثلة في زمن آخر لكن الصدى سرعان ما تبدّد.

جذبها ستيڤن نحوه لا ليعانقها ولكن ليتشبث بها وكأنه يلتمس منها السلوان. بادلته العناق بعنف، وهي تتلهف لأن تحمل عنه همومه.

وأخيراً قال متنهداً بأسى: «لا بأس. لقد تحسن مزاجي الآن. آسف لأنني ابتعدت كل هذه المسافة».

ـ لا بأس، ولكننا سنعود إلى سيارتنا بالحافلة، فأنا مرهقة.

ـ هيا لنخرج من هانتلي إلى الأبد. لن يهمني أن أرى هذا المكان بعد الآن.

***

٨ ـ ارحل ولا ترحل

استقلا الحافلة عائدين إلى المدينة فوجدا سيارتهما حيث أوقفاها، وما لبثا أن انطلقا بها.

قال هازئاً بجفاء: «حسناً، لم يكن هذا هو النهار الذي خططت له. لكنه كان مفيداً».

توقف أمام مقهى قديم الطراز تنتشر في باحته موائد بمظلات ملونة. تناولا الطعام على مائدة قرب بركة يسبح فيها البط... وأخذا يقذفان لها ببقايا الطعام... عندئذٍ قالت له جينيڤر بلطف: انظر إلى الناحية الإيجابية! لقد أحببته، وكنت مديناً له. وقد وفيت دينك بعد أن أعطيته مبلغاً جيداً يمكنه من التقاعد بكل راحة. فلماذا لا يستعمله بهذه الطريقة؟.

وأومأ برأسه شارد البال وأخذ يأكل صامتاً، لفترة. وأخيراً قال: «الحق معك، طبعاً. من أكون لكي أطلب منه أن يدفن نفسه هنا لأجلي؟ لا بد أنه قد سئم العمل في هذا السن».

ـ لكن الأمر لم يحصل بهذا الشكل، أليس كذلك؟.

ـ كلا، فحدسي المضطرب ينبئني أنه غدر بي.. وهذا هراء، كما أظن. المشكلة هي أنني أحب توجيه حياة الناس. وغالباً ما أنجح في ذلك... وهذا يزيدني سوءاً.

قالت مازحة: «والأسوأ عندما تفشل في ذلك».

شعّت ابتسامته: «أنا لا أطاق عندما لا أحصل على ما أريده. لا أدري لماذا أتكبد كل هذا العناء... ظننته إنساناً مميزاً عزيزاً، يمكنني أن أثق به».

ـ ألا تثق بأي إنسان آخر؟.

ـ بلى. أثق بك أنت.

قالها بشكل غير متوقع وقد أحسّ بصدمتها فابتسم.

ـ قولك هذا أدهشني أكثر من أي شيء آخر.

ـ إنني أثق بك تماماً. بالرغم من معاركنا، أظنك أكثر الناس الذين قابلتهم صدقاً ووفاء. وأنا واثق أنك لن تغدري بمن يثق بك.

أخرسها تقدير ستيفن ليري لها من بين كل الناس. في صوته نبرة دافئة. وفي عينيه نظرة جديدة تألقت حين أخذ بيدها قائلاً: «جينيفر».

ـ ستيفن، أرجوك. إن حياتي معقدة وأنت تزيدها تعقيداً.

ـ أتفكرين في دايفيد؟.

ـ حسناً، نعم. ألا تراني أخدعه؟.

ـ لا، أنت ودايفيد تقتربان من النهاية... إنه أمر محتّم.

وعندما لم تجب، عاد فسألها: «هل اتصلت به الليلة الماضية بعد ذهابي؟».

فأجابت بهدوء: «لا».

كان عليها أن تتصل بدايفيد. فهو ينتظر معلومات عن مارتسون، على أحرّ من الجمر. لكنها لم تستطع أن تقدم على ذلك.

ـ هل اتصل هو بك؟.

ـ لا. لا تسألني عن دايفيد.

ـ لا يمكنني أن أمنع نفسي، فأنا أغار. ربما لا يحق لي ذلك، لكنني أشعر بالغيرة من كل رجل عرفك فيما مضى، أو لمسك أو عانقك... أو.. يا للهول، لا يمكنني أن أستمر بهذا الشكل.

ـ ربما من الأفضل ألا نلتقي بعد الآن.

سألها بسرعة: «أحقاً لا تريدين رؤيتي؟».

هزت رأسها ببطء، ولكنها تذكرت كيف احتالت عليه الليلة الماضية فاحتقرت نفسها.

ـ ستيفن، عليّ أن... أن أخبرك بشيء... إنه سبب اتصالي بك...

رفع اصبعه إلى شفتيها:

ـ لا حاجة بك لأن تخبريني أي شيء. إنني أعرفك أكثر مما تظنين.

ـ ربما أنت لا تعرفني جيداً.

ـ إنني أعرف الأهم، مثل حقيقة قلبك. لقد اتصلت بي لأجل... أسباب تخصك، أشياء يجب أن تبقى طي الكتمان.

ظنها اختلقت عذراً لكي تراه، ولكن... ألبست هذه هي الحقيقة؟.

لم تستطع أن تضيف أكثر من هذا، فقد أصبحت كالمسحورة، شعرت بقلبه كالوردة يتفتح لها أخيراً... لقد غامرت لتوها بنبذ ذلك، لكنها لم تجرؤ على معاودة الكرة، فهذا الاحساس ثمينٌ للغاية، وتلك خدعة صغيرة بريئة اختلقتها في حياة أخرى، يوم كانت هي امرأة مختلفة. أما المرأة التي تقع الآن في غرام ستيفن ليري فقد ولدت منذ لحظات فقط. ستدفن سرّها في العمق، حيث لا يمكن أن يهددهما ثانية.

لم يتحدثا بعد ذلك إلا قليلاً حتى فرغا من الطعام. قنعت بالجلوس، مستمتعة بصحبته وهي تشعر بأن علاقتهما تزداد قوة. كان متكبراً، حساساً غريب الطباع، فظاً حين يروق له ذلك، غير عقلاني، صعب المعاشرة كثير المتطلبات. لكن لمحة الضعف المفاجئة التي لمستها فيه هذا النهار مسّت قلبها. أظهر لها ومن دون خوف أنه بحاجة إليها. ومن ثم توالت الأحداث وها هي الآن تجلس على عتبة مستقبل جديد رائع.

لقد أسقط الحواجز حول قلبه من أجلها، وأفضل ما في الأمر أنه بدا راضياً بهذا الوضع الجديد. وعندما نظر إليها فجأة باسماً، رأت في عينيه قبولاً ونظرة حائرة مرتبكة. وتفهمت ذلك. فقد كانت مثله تماماً.

عادا إلى البيت متمهلين. وقفا عند إشارة السير، وأمسك بيدها وضغطها لحظة ثم عاد يقود من دون أن يتفوه بكلمة. شعرت بالسعادة تستقر في داخلها... فالعاطفة المحمومة لا بأس بها لكن هذا التقارب النامي بينهما لا يوصف.

عندما وقفت السيارة، قال: لم أشرح لك بعد ملف مارتسون. لقد تركته في بيتك هذا الصباح، والأفضل أن أدخل معك لأخبرك عنه.

سألته ورأسها يدور: «مارتسون»؟ آه، نعم، «مارتسون».

كل شيء بدا بعيداً الآن ما عدا ستيڤن. وعندما دخلا بدت كل حركة أكثر قوة وكل شعور أكثر حدة... أما حركة المفتاح في القفل فكانت ذات طابع آخر... كذلك صوت الباب وهو يقفله خلفه ويقف ناظراً إليها.

بات المنزل الآن معتماً، لكن ستائرها ما زالت مفتوحة فتسلل ما يكفي من الضوء لترى في عينيه اضطراباً لم تعهده فيهما من قبل... فاضطربت هي بدورها.. لم تستطع سوى أن تهمس باسمه، وفي اللحظة التالية كانت بين ذراعيه.

لكن عناقه اليوم اختلف عن أي عناق آخر. لطالما شعرت قبلاً بمزيج من القسوة والتملك يشتعل في طبيعته. لكنها اليوم لمست ما يشبه التوسل فتجاوب قلبها مع ذلك.

تمتم يقول: «تعلمين بأنني أريدك، أليس كذلك؟».

فشهقت: «نعم... ولكن...».

ـ هس... كلمة (ولكن) للجبناء، وأنت لست جبانة، يا جينيڤر! إنك قوية بما يكفي لتفعلي ما تريدين... هذا السؤال لا يحتمل إلا جواباً واحداً: نعم، أو لا.

تابع يقول: «اتركي دايڤيد وأقيمي علاقة معي».

ـ علاقة؟.

ـ لست بحاجة إلى الزواج، يا جينيڤر... مثلي تماماً. دعينا ننير السماء، ونذهب إلى كل مكان معاً. فلندع العالم يعرف بأحاسيسنا.

تراجعت إلى الخلف ونظرت إليه متحدية: ربما مشاعرنا مختلفة.

ـ مشاعرنا متشابهة. لكنني صادق فيها بينما أنت لا... ونحن الاثنين، نعلم سبب ذلك.

ـ هذه هي فكرتك عن التقارب الشاعري؟.

ـ إنه تقرّب صادق إلى امرأة قالت إنها تحب التعامل الواضح.

ـ نعم... نعم، أنا أحب ذلك.

لكنها لم تستطع أن تتذكر أنها قالت هذا الكلام.

ـ أنت لا تحبينني أكثر مما أحبك أنا. أليس كذلك؟.

قالت بغموض: «لا. أنا لست مغرمة بك».

ـ ومع ذلك، نحن نقدّر أحدنا الآخر، وأنت تعلمين هذا. لن أستطيع أبداً أن أسمعك حديثاً جميلاً... لكنني سأبادلك العواطف المحمومة بمثلها... والمجازفات بمثلها، ومعاً سنجعل السماء تتوهج بالأنوار.

أضحى عناقه هذه المرة هادئاً تماماً وكأنه أزاح الشكوك كلها جانباً وأصبح واثقاً من النصر.

ـ إنك لي يا جينيڤر، أليس كذلك؟.

حاولت أن تجيب لكن حواسها دارت بها.

وفجأة تصاعد رنين جرس الهاتف.

تمتم ستيڤن: «يا للهول».

همست: «دعه يرن. إن جهاز الإجابة مفتوح».

وهكذا، بعد بضع ثوانٍ، عمل الجهاز وسمعت صوتها يطلب من المتصل أن يترك خبراً. ثم صدح صوت دايڤيد: جينيڤر، حاولت الاتصال بك طوال النهار. ألم يسعفك الحظ بجمع معلومات عن مارتسون بعد؟ قلت لي بنفسك إنك تملكين طريقة ممتازة لاستخلاص معلومات عنه، وكلما أسرعت في ذلك كان هذا أفضل. تعلمين أهمية ذلك بالنسبة إليّ، يا حبيبتي.

شعرت بستيڤن يتصلب بين ذراعيها، وبدت نظرة غريبة في عينيه، بينما سقطت يداه إلى جانبيه.

كادت تصرخ، لكنه قال بنعومة: «يا إلهي... إنك ماهرة حقاً!».

ردت بذعر: «ستيڤن... لا! ليس الأمر بهذا الشكل!».

ـ بل هو بهذا الشكل بالضبط. لقد جعلتني أبدو مغفلاً. لا تنكري هذا. وعلى كل حال، هذا فوز لك وعليك أن تفخري بذلك.

بدا شحوب وجهه مخيفاً.

قالت والتعاسة في ملامحها: لا، أصغ إلي... أرجوك.

- لهذا إذاً اتصلت بي ودعوتني للخروج معك، أليس كذلك؟.

- ستيڤن؟.

- أليس كذلك؟.

- نعم، ولكن...

- وقد صدّقتك. يا للضحك الذي ستضحكينه... لقد نسيت أمر دايڤيد... تلك حماقة مني. فالخدعة كلها من أجل دايڤيد، أليس كذلك؟.

صرخت: «لم أفعل هذا من أجل دايڤيد. بل فعلته من أجل نفسي. أردت إذلالك... ثم، إذا شئت أن تعلم حقاً... كنت سأخبرك لاحقاً بأن المعلومات هي من أجله، وذلك لكي أسرّ بإغاظتك فقط».

- آه، أرجوك. يمكنك اختلاق أفضل من هذا.

- لكنها كانت حماقة، سرعان ما غيرت رأيي اليوم.

- لا تذكري هذا اليوم إلا إذا أردتني أن أقوم بشيء نندم عليه نحن الاثنان. عندما أفكر كيف أنني... تباً لك.

قالها بوحشية فأشاحت بوجهها حتى لا ترى الغضب البادي في عينيه. ظنت أنها رأت فيهما الألم أيضاً، لكن من الصعب أن تتأكد. ولم تكد تتحرك حتى أمسك بكتفيها وأدارها بعنف لتواجهه، وهو يقول بغضب: انظري إلي. انظري إلى وجهي إذا استطعت... ظننتك امرأة صادقة يا جينيڤر. كان علي أن أتذكر أنه لا وجود لشيء كهذا. كل امرأة تكذب كلما فتحت شفتيها. وعندما تعانق رجلاً، تكون تلك الكذبة الكبرى.

وجذبها فجأة إليه وعانقها عناقاً قاسياً لا أثر للعاطفة فيه... مزيجٌ من الرغبة والألم والغضب المنتقم... وتنبهت لغضبه هذا.

أحست بالخوف إلاّ أنها استجابت لعناقه والتصقت به.

قال لها: كيف لأي امرأة أن تعانق رجلاً بهذا الشكل بينما الأمر كله خداع.

فشهقت «لم يكن هذا خداعاً...».

- إخرسي. أتظنينني أريد سماع ما تقولين؟.

وعاد يعانقها بعنف بالغ فاشتعلت النار في جسدها.

قال ساخراً: «قلبك يخفق بعنف. أراهن أنك تزيفين هذا أيضاً».

- ستيڤن، أرجوك...

- يا لك من كاذبة ماهرة، ولم كل هذا؟ لأجل ذلك الانتهازي الذي وكّلك بعمله القذر؟ هل فكر إلى أي حد قد تصلين لتحصلي على مراده؟ وهل أهتم لذلك؟ ما كنت أبداً لأدع امرأتي تتكبد المخاطر لأجلي. لعلك لا تملكين عقلاً يدرك أنك تقومين بعمل خطر! أم ظننت أنك تستطيعين التحكم بي كدمية من دون مواجهة النتائج؟.

وفجأة، تنبهت جينيڤر إلى نفسها، واستجمعت قوتها حتى أفلحت في التخلص منه، ثم هبت في وجهه قائلة: أنا لست خائفة منك.

- إنك إذن حمقاء.

- كانت حيلة تلميذة سخيفة، وقد تخليت عن هذه الفكرة الليلة الماضية. لم أفكر في دايڤيد طوال هذا النهار... لم يكن له مكان في أفكاري لأنك... لأنك أنت وأنا... ألا تشعر أن هذا النهار كان مختلفاً...؟.

قال بخشونة: «نعم. إنه لكذلك. كان نهاراً عرفت فيه حقيقتك».

كبتت نفساً حاداً متألماً: أريدك أن تخرج الآن، يا ستيڤن.

حمل ملف مارتسون، واستدار ليخرج... لكنه توقف وأطلق ضحكة صغيرة ساخرة، ثم ألقاه إليها: خذيه. فقد تعبت في سبيله... وأرجو أن يقدّر لك دايڤيد هذا التعب.

ثم أغلق الباب خلفه بهدوء.

* * *

- أنت رائعة حبيبتي! كيف استطعت الحصول على هذا؟.

وأخذ دايڤيد يقلب الأوراق والاعجاب ظاهر عليه.

- لقد انتهزت الفرصة وسألت شخصاً ماهراً في هذه الأمور.

قالت ذلك بغموض، فمال نحوها يعانقها وهو يقول: «في هذه الأوراق بعض المواد البالغة الحساسية... أحسنت!».

جرى الحديث في مكتبه. فقد ذهبت إليه جينيڤر رأساً في الصباح التالي لتسلمه الملف، وذلك بعد أن تصفحته بنفسها أولاً وأدركت أن ستيڤن قد أزال الصعوبات لكي يسهّل عليها الأمر. فأحست بالذنب.

دخلت «بيني» بالقهوة. وبعد أن سكبتها منحت جينيڤر ابتسامة احترام ثم خرجت.

قالت جينيڤر: «تبدو «بيني» شاحبة قليلاً هذا النهار... هل هي مريضة؟».

أسرع دايڤيد يقول: «لا، لا. إنها بأحسن حال. وفي الواقع، أنت نفسك تبدين شاحبة».

ـ لقد تأخرت في العودة إلى البيت الليلة الماضية.

ـ هذا صحيح، فقد تركت لك خبراً في جهاز الرد على الهاتف. هل سمعته؟.

فردت بهدوء: «نعم. سمعته».

إن بدت شاحبة، فلأنها لم تنم لحظة بعد خروج ستيڤن، بل أخذت تتململ في سريرها وتتقلب بضيق. ثم نهضت في الرابعة صباحاً، وأعدّت لنفسها شاياً ثم جلست تتأمل الفجر.

لم تستطع أن تنظم أفكارها أو أحاسيسها... فهي ممزقة بين الغضب والتعاسة، وأسيرة لهذا الصراع العقيم... وطفح قلبها بألم لم تستطع الكلمات أن تخلصها منه.

بالأمس الرجل الحقيقي... الرجل الذي اعتاد إخفاءه، فتح لها قلبه قليلاً. حين اعتنى بمخالب تعلّمت أن الإنسان يمكن أن يخفي رقة بالغة، وهي تعرف الآن أنه عاطفي وسخيّ أيضاً... وهما ميزتان يشعر بالخجل منهما. كما أنه يُجرح بسرعة أكبر مما يتصور الآخرون.

لقد سألته: «ألا تثق بأي إنسان آخر؟» فأجابها حينذاك «بلى، أثق بك

أنت». وحبست اجابته أنفاسها، فحين أشاد بصدقها فتح حفرة تحت قدميها. لقد حاولت تجنبها. ولكن من سوء الحظ أنه اكتشف حيلتها الصغيرة، وقرأ فيها أكثر مما كانت تهدف إليه.

أخذت تراجع خصامهما مرة بعد مرة. لقد امتلأ ستيڤن مرارة... وعبّر عن مرارته بالغضب. هل أحس حقاً بالتعاسة؟ أم أنها تخيلت ذلك؟ وما الذي يحتجب وراء تهديده الضمني بالثأر؟.

عادت إلى مكتبها، حيث أمضت بقية ذلك النهار متوترة الأعصاب تجفل كلما رن جرس الهاتف. ولكن ستيڤن لم يتصل قط. لا ذلك النهار ولا الذي بعده، ولا الأسبوع الذي تلا.

* * *

أخذت جينيڤر تلاحظ الآن التغيير الذي طرأ على أخيها تريڤور. لقد تلاشى عبوسه وأصبح سريع الابتسام حتى إنه يضحك أحياناً. وباختصار، أضحى رجلاً سعيداً إلى أقصى حد.

حتى عمله أصبح مختلفاً، إذ أخذ يظهر استعداداً للمغامرة لم يكن فيه من قبل. راقبته جينيڤر مسرورة، لكنها لم تذكر له تلك الليلة التي رأته فيها مع ماود. ولم يأت هو على ذكرها أيضاً... تساءلت هل علم بوجودها هناك... ربما رأى سيارتها أمام الباب، لكنه لا شك جاء وذهب من دون أن يرى سوى المرأة التي يحب.

وفي أحد الأيام اتصلت بها ماود نفسها ودعتها إلى الغداء في مطعم إيطالي. فدهشت جينيڤر حين رأتها تملأ طبقها بالطعام ثم تأكل بمتعة بالغة.

قالت جينيڤر: «ظننت أن عارضات الأزياء يأكلن كالعصافير» فهزت ماود رأسها: «أغلبنا يأكلن كالبغال».

ـ وعملك؟.

ـ كان عملاً شيقاً.

ـ ماود، هل أنت مغرمة بتريڤور حقاً؟.

ـ طبعاً أنا كذلك. إنه رائع.

- رائع؟ تريفور؟.
- إنه بحاجة فقط إلى امرأة تحبه وتفهمه.
- ولكن لديه أسرة.
- لكنه لطالما شعر بإهمالكما له أنت وجدك.
- لا أفهم.
- تريفور يغار لأنك كنت دوماً حبيبة جدك. إنه شغوف بجده ويبذل جهده في إرضائه، لكنه لا يستطيع منافستك لأنه لا يمتلك سحرك.
- هل أخبرك هو بهذا؟.
- لا بالطبع. حبيبي المسكين لا يعرف كيف يعبر عن أحاسيسه بالكلمات. لكنني راقبته ورأيت وجهه.
- ألهذا إذاً يتذمر تريفور كثيراً؟
- كان يشعر أنه في الدرجة الثانية، ولا شيء أكثر من ذلك. لكنه معي، سيكون الأول على الدوام.

ابتسمت جينيفر مسرورة لأجلهما.

* * *

وفي صباح اليوم التالي أدركت جينيفر أن ماود أخبرت تريفور بأنها تريد الزواج به في أسرع وقت ممكن فعندما وصل إلى مكتبه كان يهمهم مترنماً.

سألها وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مودة، ابتسامة لم ترها منذ وقت طويل: بماذا أساعدك؟.

قالت على الفور: «أريدك أن تخبرني عن كل ما حدث الليلة الماضية. لقد تناولت الغداء أمس مع ماود».

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة حمقاء وهو يحتضنها: ستتزوج.

قالت بإخلاص: «لشدّ ما أنا مسرورة ما دمت أنت سعيداً».

- سعيداً؟ أنا لم أعرف طعم السعادة من قبل. عندما أفكر في مبلغ كمالها... وفي أنني عاديّ بهذا الشكل...

أدركت جينيفر أنه لا يقول ذلك بلباقة، فتريفور لا يعرف ما هي اللباقة.

وهكذا نبعت كلماته المتواضعة من القلب.

وأضاف: «إنها المرأة التي لطالما بحثت عنها. امرأة لي وتعيش لأجلي. بعد أن ماتت أمي... شعرت بالضياع...».

فقالت: «أعلم هذا».

وأردف ببساطة: «لكنني الآن لم أعد وحيداً، أظنك شعرت بالضياع أنت أيضاً».

أومأت وهي تبتسم له، فبادلها الابتسام. لقد عادا أخاً وأختاً مرة أخرى.

أعدت القهوة وجلسا يتحدثان ساعة كما لم يتحدثا من قبل. أخذت جينيفر تنظر إلى أخيها بحنان، مسرورة للتغيير الذي طرأ عليه. كان دوماً في أعماقه رجلاً دمثاً، بالغ الرقة... رجلاً ينتظر الحب ليكشف عنه.

هذا هو الحب المثالي، كما أدركت. إنه إحساسٌ يُخرج من أعماق العاشق أفضل مزاياه. فالعاشق يعرف خبايا قلبه تماماً، ولا تعذبه الشكوك، كما شعرت هي بالحنان نحو رجل ما بينما عاطفتها موجهة نحو رجل آخر. الحب الصافي المباشر، يجعل العالم بسيطاً، يجيب عن كل الأسئلة. فلماذا لا يحصل الأمر كذلك معها؟.

لو أن أحداً أخبرها أنها بعد ليلتين ستكون جالسة في «ساڤوي» لتحتفل بخطبتها إلى دايڤيد، لما صدقته.

***

٩ ـ لماذا هجرتني؟

بدأ اليوم كبقية الأيام لكن علامات الزلزال الأولى سرعان ما ظهرت حين جاء دايڤيد إلى مكتبها وقد بدا عليه الاضطراب ليخبرها بأنه ترك ستيڤن لتوّه.

ـ أرسل يطلبني ليقول إن شركته تعرض عليّ عملاً.

أسندت جينيڤر جبينها وهي تتساءل أي شرٍ ينويه ستيڤن. وسرعان ما علمت الجواب عندما أخذ دايڤيد يصف ما تضمنه حديثهما المذهل.

ـ عاملني أروع معاملة، ليقول لي بعد ذلك إن هناك شرطاً واحداً... وهو أن أنفصل عنك!

وتنفس دايڤيد بعمق.

ـ ماذا؟.

ـ قال لي بشكل مباشر: «ابتعد عن جينيڤر نورثون»! أنا الذي فكرت أن ذلك لا يحدث إلا في أفلام العصابات.

قالت جينيڤر ببطء: أتراك تخبرني بأن ستيڤن ليري قد تجرأ... تجرأ حقاً....

لم تستطع الكلام لشدة الغضب.. منذ ليلة خصامهما، بدأت مشاعرها نحو ستيڤن تصفو وقد تعاطفت معه بعد الألم الذي سببته. وما إن اكتشفت مبلغ قسوته حتى جرفت الصدمة كل ندمها. هذا هو انتقام ستيڤن إذاً، إظهار شامل لقوته! لكن عليها ألا تسمح له بالانتصار.

بدت ملامح وجهها غريبة... ولو كان تريڤور موجوداً لأدرك أن هذا هو ضباب جينيڤر الأحمر. فهو يدفعها إلى عملٍ عنيف قد تندم عليه بعد خمس

دقائق فقط. وبالفعل جاءت كلماتها التالية لتثبت نظريته تلك:

ـ دايڤيد. علينا أن نواجه بقوة وجرأة. حتى ولو أن هذا لم يحدث، كان علينا أن نفكر في المستقبل قبل الآن.

وأمسكت يديه بيديها: «لقد حان الوقت لنخبر كل إنسان، وأعني كل إنسان، أن زواجنا سيحصل. سواء أعجب هذا ستيڤن ليري أم لا».

قرأت الصدمة على وجهه. وظنته للحظة سيعترض، لكنه أجابها بأدب: «طبعاً، يا حبيبتي. كما تقولين، كان الأمر مسألة وقت...».

استمر غضبها قرابة ساعة. زفّت الخبر إلى أخيها وجدها، ثم اتصلت بالصحيفة المسائية وطلبت أن ينشر في الطبعة الليلية.

بعد ذلك خرج دايڤيد وبقيت وحدها فتملكها الاضطراب لعملها المتسرع. فمن ناحية يقدم لها دايڤيد الاستقرار الذي لطالما بحثت عنه، ومن ناحية أخرى يغريها ستيڤن بحياة المغامرات والمقامرة حيث تربح كل شيء أو تخسره بكلمة واحدة... لكن الكلمة قيلت، وفات الأوان. فات الأوان...

تعشت ذلك المساء مع دايڤيد في «ساڤوي» في حفلة خطوبة تقليدية، تزينها أضواء الشموع والأزهار. حاولت جينيڤر أن تروّح عن نفسها... أرادت أن تخنق الصوت الخافت الذي يردد على مسمعها أن هذا كله زيفٌ. ومع أن هذه الليلة تمثل كل ما كانت تصبو إليه، أحست أنها تمثيلية كاذبة.

تملكها الذعر عندما أصرّ دايڤيد على إطالة السهرة، فالسهر يصيبه دوماً بنوبة صداع نصفي. لكنها لمست في تصرفه نوعاً من التمرد، وكأنه يحاول أن يقنع نفسه بشيء.

وتحقق خوفها عندما أصابه ألم قوي في رأسه. وسرعان ما أظلمت عيناه ألماً وباتت ابتسامته مغتصبة.

قالت له برقة: «أظن أن علينا الذهاب».

وافقها شاكراً، فقادته إلى الخارج برفق حتى عثرا على تاكسي. كانت شقة دايڤيد بعيدة بينما شقتها قريبة. وهكذا رأت أن تأخذه إليها وترقده في السرير إلى الصباح حتى يتخلص من صداعه ذلك.

وصلا إلى بيتها بعد دقائق، فساعدته على الدخول إلى غرفة نومها ثم أعانته على خلع ملابسه فألقى رأسه على الوسادة، وضغط على يدها ثم نظر إليها هامساً: شكراً يا حبيبتي. إنك تعتنين بي جيداً.

اجتاحها الحنان نحوه: دوماً سأعتني بك.

منحها شبه ابتسامة وهو يغمض عينيه. فسحبت يدها من يده ثم فتحت درجاً أخرجت منه قميص نومها، وخرجت من الغرفة وهي تغلق الباب خلفها بهدوء.

جهزت الفراش في غرفة الضيوف لتنام فيها، ثم انتقلت إليها بهدوء بعد أن دخلت الحمام أولاً... فمن يدري؟ قد يغسل الماء هذا التردد الذي يخالجها في ما تصورته أروع ليلة في حياتها. لقد ربحت الجائزة التي انتظرتها طويلاً، برهنت لستيفن أنه لا يستطيع أن يملي عليها أوامره. ومع ذلك ظل يساورها شعور غريب بالقلق.

خرجت من الحمام وجففت جسدها. كان قميص النوم أبيض شفافاً... لقد أحضرت، في عجلتها، قميصاً غير مناسب لا تلبسه امرأة تريد أن تنام وحدها في غرفة أخرى لأن رجلها يعاني من صداع.

شعرت فجأة بحاجة إلى الحب. وأغمضت عينيها تدريجياً وإذا بوجه يتراءى لها.

عادت تفتح عينيها بذعر. كيف يجرؤ ستيفن على اقتحام أحلامها في لحظة كهذه؟ وماذا يفعل وجهه في أحلامها؟ وكأن أفكار الحب والعواطف المحمومة كلها لا تتوجه إلاّ إليه؟ إنه ليس الرجل الذي تحبه أو الرجل الذي ستتزوجه. ومع ذلك، فهي لا تستطيع التخلص منه.

أطلت من باب غرفة النوم تلقي على دايفيد نظرة أخيرة... بدا لها فائق الوسامة، ووقفت تتأمله بإعجاب. ولكنها بعد لحظة أدركت أن إعجابها به بريءٌ خالٍ من أي شوق.

لعل هذا يعود إلى مرضه. فكرت في هذا بسرعة، وإذا بصوت ستيفن الساخر يرن في أذنيها: «ستتشاجران دوماً على المرآة».

تراجعت من الغرفة، وتركت الباب منفرجاً، إذ يحتمل أن يناديها دايفيد أثناء الليل. وإذا بها تقفز مجفلة وهي تسمع رنين جرس الباب. تناولت معطفها المنزلي بسرعة من خلف باب غرفة النوم، ثم ارتدته على عجل وهرعت لتفتح الباب.

كان ستيفن يقف عند العتبة وقد أظلمت عيناه لشدة الغضب، والتوى فمه بمرارة بالغة.

سألته: «ما الذي تفعله هنا؟».

أجاب وهو يدفعها إلى الداخل ويغلق الباب خلفه: دعينا نتكلم في الداخل.

ـ ليس لدينا ما نتكلم عنه. أخرج حالاً.

ـ سأخرج عندما انتهي من كلامي. قد لا تملكين ما تقولينه ولكن أنا لديّ الكثير... دعينا نبدأ بالحديث عن غرابة روح النكتة لديك.

ـ ليس لديّ روح النكتة في ما يتعلق بك.

ـ حسناً، أظن من المضحك أن تعلني خطوبتك على ذلك التافه الحشرة وتتركيني لأعرف ذلك من الصحف. لا أدري متى كنت ستخبرينني.

ـ ولماذا أخبرك؟ هذا ليس من شأنك.

ـ إنك تعلمين الحقيقة.

وتركها مندفعاً إلى الغرفة الأمامية. لم تره جينيفر على هذه الحالة قط. فبدلاً من أناقته البالغة، كان من دون ربطة عنق، فيما قميصه مفتوح عند الرقبة، وشعره أشعث. أما الأغرب فتلك النظرة الوحشية في عينيه. ولأول مرة يبدو ستيفن وكأنه لا يملك السيطرة على نفسه.

قال بوحشية: «إنك بحاجة إلى هزة عنيفة. لا بأس... لقد تشاجرنا، وربما قلت أنا بعض الكلمات غير المناسبة... ولكن أن تنتقمي مني بهذا الشكل...».

فردت بغضب: «أنتقم منك؟ أتظن أن زواجي... ما هو إلا لمجرد الانتقام منك؟».

صرخ ثائراً: «لا تتحدثي إليّ عن زواجك. أنت لا ترغبين بالزواج من دايڤيد، لقد قمت بهذه الخطوة عقاباً لي. حسناً، كنت أحمق وكان عليّ أن أدرك أنه سيسرع ليخبرك بما عرضته عليه، وسيدفعك غضبك إلى القيام بعمل أحمق... ولكن ليس إلى هذا الحد... هل جننت؟».

ـ أنت مخطىء يا ستيڤن. كان هذا سيحدث يوماً ما. إنني أحب دايڤيد، وأنت تعلم هذا. كما إنه يحبني.

ـ أعلم أن فكرة جنونية توهمك بأنه الرجل الذي سيحل مشاكلك، أما هو فقد انبهر بك كأرنب أعمته الأضواء الساطعة. كان يجب أن أضع ذلك في اعتباري، لكنني لم أفعل. وإنما أغمضت عيني. ولكن على هذه التفاهة أن تتوقف هنا... لقد انتهى المزاح.

ـ إنه ليس مزاحاً.

ـ تصرفي كامرأة ناضجة، يا جينيڤر. لا يمكنك أن تتزوجيه... أنت لا تعنين ذلك جدياً. لقد فعلت ذلك لكي تلزميني حدودي. لا بأس، لقد نجحت، وأنا أذعن.

كان غريباً، بالنسبة إلى امرأة أعلنت لتوها خطوبتها إلى رجل أن يخفق قلبها لرجل آخر.

ـ وماذا تعني بالضبط بقولك (أذعن)؟.

أدار إليها وجهاً منهكاً: «أليس هذا واضحاً؟».

ـ ليس بالنسبة إليّ.

ـ لقد جئت إلى هنا جاداً في طلبك. أليس كذلك؟ إنني لا ألاحق النساء، ولكنني جئت إليك... متوسلاً أن توقفي هذا العبث الآن، وإلا...

ـ وإلا ماذا...؟

توترت ملامحه. بدا كرجل يتعلق بحافة هاوية. وأخيراً قال: «وإلا سقطت أسعار أسهمي».

حملقت جينيڤر فيه وقد جمدتها المفاجأة. ثم همست: ماذا؟.

ـ بإمكان خطوبتك المفاجئة أن تسبب لي ضرراً كبيراً في السوق.

صرخت بعنف: «لا أصدق أنني أسمع هذا الكلام. السوق لا يهمني! فأنا أتزوج دايڤيد لأنني أحبه».

ـ كلام فارغ. تتزوجينه لأنك غضبت مني، وهو يتزوجك لأنك أمرته بذلك.

ـ هذا غير صحيح.

قالت هذا متلعثمة. حاولت تصوّر وجه دايڤيد وقد أفقدته الصدمة لونه بعد أن بلّغته بضرورة زواجهما.

قال بازدراء: «لا تطلبي مني أن أصدق أنه عرض عليك الزواج. إن خوفه البالغ على نفسه يمنعه من ذلك. لا شك أنك قلت له: لن ندعه يملي علينا أوامره، أليس كذلك يا دايڤيد؟ ولهذا سنعلن خطبتنا لكي نلقنه درساً. ولم يدرك الضعيف المسكين ما الذي حدث له».

ـ لا يحق لك أن تقول هذا!

ـ سأقول كل ما يمكن أن يخرجك من هذا المأزق. أتراه يعرف كيف تنتعشين بين ذراعيّ؟ أتراه يتساءل لماذا تموتين بين ذراعيه؟.

ـ أنت لا تعرف كيف أكون مع دايڤيد.

ـ أعرف أنك لا تشتعلين شوقاً للمسته كما يحدث لك معي. فما من امرأة تتفاعل بهذا الشكل مع رجلين في آنٍ واحد. وبما أنك تتحولين هكذا معي، فلا يمكنك أن تكوني كذلك معه.

ـ إنك تحرّف كلامك. منذ أيام فقط، وفي هذه الغرفة بالذات، اتهمتني بأنني أزيّف مشاعري لأخدعك.

ـ كنت مجنوناً، وكان لديّ عذري. ولكن عندما هدأت أعصابي أدركت أنه لا يمكنك أن تدّعي إلى هذا الحد. فما هي إلا لمسة واحدة حتى يرقص قلبانا فرحاً.

صرخت وهي تشيح نظرها عنه وتغطي أذنيها: كفى.

جذبها ليديرها إليه وهو يهزها: لماذا؟ هل تؤلمك الحقيقة؟ انظري في عينيّ واخبريني أن هذا غير صحيح.

همست تقول: لقد... فات الأوان...

قال وهو يأخذها بين ذراعيه: لا يفوت الأوان مطلقاً فيما هذا الشعور عالقٌ بيننا!.

منذ لحظة وصوله علمت أنها لن تفلت منه، ومع ذلك فقد فوجئت. لو عاشت حتى المائة لبقيت تضطرب كلما عانقها. كان عناقه في البداية رقيقاً حنوناً، بعث فيها مشاعر لا تجرؤ على تسميتها. أما الآن فأصبح جارفاً مسيطراً، لا حنان فيه وإنما قوة عمياء لرجل لا يفهم شيئاً آخر.

لكن خفقات قلبها المتصاعدة أخبرتها بأنها من سيدفع هي ضريبة العاطفة المحمومة التي خرجت عن سيطرته.

تمتم وهو يضمها: لطالما انتهت بنا الأمور إلى هنا. ولكننا انتظرنا طويلاً لنواجه ذلك... طويلاً أكثر مما يجب...

همست بذعر: «إن دايڤيد...».

فقاطعها: «انسيه. ما يهمنا هو نحن. لم تجذبني امرأة قط كما جذبتني أنت».

واشتد عناقه فحاولت أن تقاومه، لكن المشاعر التي أثارها في نفسها كانت أقوى من إرادتها. وما لبثت أن نسيت العواقب فلم تعد تفكر. كانت مستغرقة فيه بحيث لم تشعر به يحملها إلى غرفة النوم ويدخلها من الباب.

- جينيڤر...

رفعت بصرها إلى وجه ستيڤن، لكنه لم يكن هو المتكلم. جمد في مكانه. بدا شاحب الوجه بعد أن سمع الصوت الذي جاء من السرير. شعرت به يتوتر لهول الصدمة... شيئاً فشيئاً ابتعد عنها، وعيناه مسمرتان على السرير. كان دايڤيد قد جلس لتوه وهو يغطي عينيه بيده. جمد العالم حولها... وأخيراً أنزل دايڤيد يده وحدّق إليهما لحظة، ثم عاد فاستلقى على السرير مغمض العينين.

قال ستيڤن ببطء: «أيتها التافهة المخادعة. ها قد فعلتها مرة أخرى». وكان شاحباً من شدة الغضب وهو يجرها إلى خارج الغرفة.

حاولت جينيڤر أن تفكر بشكل سليم. لكن جسمها كان ما زال متأثراً بعناقه فلم تستطع فهم ما حدث جيداً.

- ستيڤن... إنك لا تفهم...

- ما الذي يجب أن أفهمه؟ تعرفين شعوري نحوك وجعلتني أخدع نفسي فيما أنا أعترف لك. أما أنت فكنت تضحكين مني طوال الوقت، مرة أخرى!.

صرخت بعنف: «هذا غير صحيح. ليس الأمر كما تظن...».

قال ثائراً: «ستقولين لي بعد هذا إنني لم أر دايڤيد كونر في فراشك».

ارتفع غضبها يماثل غضبه: وما العجيب في ذلك؟ إنه خطيبي! أي رجل أكثر منه يملك الحق في أن يكون في سريري؟.

- كنت لأعطيك جواباً لهذا. ولكن ذلك كان قبل أن أدرك أنك غبية لدرجةٍ حولت هذه المسألة إلى مهزلة.

فصرخت: «سأفعل ما أشاء. كيف تجرؤ على القدوم إلى هنا لتقرر من أتزوج أو من لا أتزوج؟ تبدو واثقاً من نفسك جداً... إذ تكفي إشارة من اصبعك لتركض جينيڤر إليك... لماذا؟ لأنها لا يمكن أن تحب رجلاً آخر إذا كان ستيڤن ليري يريدها. ولكنك مخطىء... فكل ما قمت به هو لأجل دايڤيد. إنه الرجل الوحيد الذي أحب ولا يغنيني عنه أي رجل آخر».

همس قائلاً: «كنت إذاً تعبثين معي؟».

فأجابت: «نعم، كنت أعبث... وأنت أيضاً لا يحق لك أن تشكو، يا ستيڤن. كل ما في الأمر هو أنك وجدت فتاة أكثر براعة منك في هذه اللعبة. ما هو شعورك إزاء هذا؟».

فقال بهدوء: «كإغماد سكين في القلب».

هزها جوابه من الأعماق. بدا وجهه للحظة خالياً من كل شعور عدا الألم. أعمتها الحقيقة المذهلة... وكأنها كانت تبارزه بسيف خشبي من باب العبث، فإذا بهذا السيف يتحول فجأة إلى سيفٍ حقيقي. لم تعد المبارزة لعبة عابثة. فنصل السيف كان حاداً، والألم رهيباً.

ومضت في عينيه نظرة معذبة واحدة. لو أنها طالت لمدت يديها إليه بلهفة، ولكنها انطفأت على الفور لتفسح المجال لحقد بالغ. ثم قال بهدوء قاتل: هنالك مثل قديم يا جينيڤر، يقول: (إخدعني مرة، يقع العار عليك... واخدعني مرتين، يقع العار عليّ). وقد تركتك في الواقع تخدعينني مرتين، ولا يمكنني السكوت. لم يعاملني أحد كما عاملتني. لم يخدعني أحد من قبل ثم ينبذني... أنا المنتصر على الدوام.

فصرخت فيه: «لكنك لم تنتصر هذه المرة».

ـ لم تنته اللعبة، لم تنته بعد... ولن تنتهي إلا بعد أن أفوز وتعترفي أنت بذلك».

ـ ستنتظر طويلاً.

ـ حتى ولو انتظرت إلى الأبد، ستحين لحظة انتصاري. ولكنها لن تأخذ كل ذلك الوقت. عندها ستتمنين لو أنك لم تتخذيني عدواً لك قط. تذكري قولي هذا.

اقترب منها خطوة، لكنها لبثت مكانها. كانت ترى دائماً هالة من الوعيد حول ستيڤن. لكنها الآن تأخذ شكلاً ملموساً، موجّهاً ضدها. قالت بصوت خافت:

ـ أخرج من هنا.

ـ سأخرج عندما أكون مستعداً لذلك، فلديّ ما أضيفه أولاً. تابعي طريقك وتزوجي فتاك الجميل، وستندمين على ذلك بعد أسبوع. وعندما يدفعك إلى الجنون بضعفه ومشاكسته، فكري كيف كان من الممكن أن نكون معاً.

وخرج... تركها تحدّق بالباب، مرتجفة تحت وقع الصدمة.

* * *

استيقظت جينيڤر بقبلة خفيفة على جبينها، ففتحت عينيها ووجدت دايڤيد بجانبها، يقول: لقد أحضرت لك كوباً من الشاي.

ـ شكراً. كيف حالك هذا الصباح؟.

ـ ممتاز. هذا الصداع لا يدوم طويلاً والحمد لله.

كان يبدو بحالة جيدة ويبتسم راضياً. بدا لها هذا غريباً. هذا الرجل رأى خطيبته تعانق رجلاً آخر الليلة السابقة. ولكن ربما لم يرهما، إذ كان يغطي عينيه معظم الوقت. وهي تعرف أن الصداع يشوش ذهنه أحياناً.

رشفت الشاي فوجدته لذيذاً، فدايڤيد يتقن الأعمال المطبخية:

ـ كان يجب أن أصغي إليك ولا أطيل السهر... كنت محظوظاً لوجودك معي.

تمنت لو أنه لم يقل هذا، فقد بات كلامه يشكل عوائق في وجهها. لكنها هي التي فرضت عليه هذا الوضع... لم يعد بإمكانها أن تتنكر لاحتياجاته.

ثم عاد إليها ما كانت تحاول أن تتذكره، قال لها ستيڤن مرة وهما على شاطىء البحر... «أنا مسرور لأنك كنت معي حين علمت بذلك».

الحاجة، التوق واللهفة إلى اليد المواسية، مشاعر ربطتها بدايڤيد. ولكنها وجدتها أيضاً في ستيڤن... وبعث فيها هذا الكلام الحيرة والاضطراب. لكنها تذكرت ذلك بعد فوات الأوان.

تناولت، مع دايڤيد، طعام الإفطار كأي زوجين قديمين. ثم أوصلته إلى عمله وتابعت إلى مكتبها حيث كان تريڤور بانتظارها. هنأها بخطبتها ببضع كلمات تقليدية، لكن الاضطراب بدا في عينيه.

وأخيراً سألها: «أنت سعيدة، أليس كذلك؟».

ـ إلى حد عنيف.

ـ تظن ماود أن علاقة ما تربطك بستيڤن.

ـ كنت أبدو معه أمام الناس من أجل مصلحة الشركة وقد انتهى هذا الآن.

ـ إن انقطاع العلاقة قد خفّض من أسعار أسهمنا ولكن بنسبة قليلة فقط. وسرعان ما ستصعد مرة أخرى.

ولكن الجميع ذعروا عندما بقيت الأسعار على حالها، لا بل كانت تهبط بسرعة جنونية. فقال تريڤور بهلع: هناك من يخفض أسعار أسهمنا.

وأدركت جينيڤر بقنوط أن شركة نورثون تفقد مصداقيتها شيئاً فشيئاً. ولكن الأسعار توقفت فجأة، ثم بدأت بالارتفاع.

قال تريڤور: «تقول الشائعات إن رجلاً ما يشترينا، وقد يملك الآن ما يكفي من الأسهم لكي يطلب مقعداً في مجلس الإدارة. ولزيادة الطين بلة، طلب الجد بارني عقد اجتماع هذا المساء... سيكون ذلك الرجل موجوداً».

وصل بارني قبل موعد الاجتماع بعشر دقائق. وشمل بنظراته الغرفة بكراسيها المنظمة حول الطاولة، ثم قال: إننا بحاجة إلى كرسي آخر من أجل العضو الجديد في الشركة.

قال تريڤور بصبر: لكننا لا نعرف بعد من يكون. كما أنه لن يأتي لأنه لا يعرف بشأن الاجتماع.

فرد بارني بحزم: أي شخص ذكي إلى حدّ التصرف بهذا الشكل، يحضر بالتأكيد اجتماعاً لم يبلغه عنه أحد.

في الساعة السادسة إلا خمس دقائق بالضبط، اجتمع الشركاء الثلاثة. اتخذ بارني مقعده العالي الظهر على رأس الطاولة.

سأل تريڤور بلهجة رسمية: هل لك أن تبدأ، يا سيدي الرئيس؟.

هز بارني رأسه قائلاً: فلننتظر بضع دقائق أخرى.

نظر تريڤور وجينيڤر إلى الكرسي الخالي وكأن طيف صاحبه يحتله... كان الجد بارني مقتنعاً بفكرة حضور الشريك الجديد.

في تلك اللحظة، دقت ساعة الجدار القديمة ست دقات... ما إن انتهى رنين الدقة الأخيرة، حتى انفتح الباب ودخل ستيڤن ليري غرفة الاجتماع.

***

خيم صمت مطبق على القاعة... ثم قفز تريڤور واقفاً، بينما نهضت جينيڤر ببطء. بارني وحده بقي جالساً وقد بدا عليه الهدوء التام.

قال ستيڤن: مساء الخير، أرجو ألا أكون قد جعلتكم تنتظرونني طويلاً...

مع أنه كان يوجه كلامه إليهم جميعاً، إلا أن عينيه المتحجرتين لم تفارقا

جينيڤر لحظة.

سأله تريڤور: أتعني أنك أنت من اشترى أسهمنا؟.

فاحتجت جينيڤر: ليس هو بل شركة «تشارتيريز».

فقال ستيڤن ببرودة: لا، بل أنا شخصياً... وأنا الآن أملك ثلث شركة نورثون.

(ستتمنين لو أنك لم تتخذيني عدواً قط). تواترت كلماته هذه في ذهنها برنين هائل. لقد جاء ستيڤن ليري لينفّذ انتقامه.

قال بارني باسماً: لنرحب بالعضو الجديد في مجلس الإدارة... الأفضل لنا جميعاً أن نحاول الانسجام معاً.

قال تريڤور: «أنا موافق».

فسألت جينيڤر بعنف: «ألا يفهم أي منكما ماذا يجري هنا؟ عليكما أن تحارباه وإلا ابتلعنا جميعاً».

ثم التفتت إلى ستيڤن: «بارني لا يعرف عنك شيئاً، وتريڤور يفضّل ألا يختلف مع شقيق ماود، أما أنا فأعرفك جيداً وسأحاربك».

فأجابها قائلاً: لقد أوضحت موقفك تماماً. والآن أبإمكاننا المباشرة بالعمل؟.

جلس على مقعده إلى الطاولة، تاركاً جينيڤر واقفة وقد تملكها الذعر. بدا واضحاً أن الآخرين لم يتوسما فيه أي خطر. لكنها تعرف ستيڤن أكثر منهما. لقد شعرت بقوة ذراعيه تحميانها، ورأت وجهه مثقلاً بالعاطفة تارةً ثم مظلماً بالغضب تارةً أخرى. كما وجدت فيه نِعم «الصديق»، عندما أخبرها ببساطة أنه يثق فيها كلياً. أما الآن فالثقة تلاشت وحلت مكانها المرارة.

وزّع ستيڤن بعض الأوراق، ثم دفع حصة جينيڤر إليها من دون أن يلتفت إليها. وفيما أخذت تدرسها تراءت لها الكفاءة العالية والخبرة الحكيمة. رفعت رأسها فوجدته ينظر إليها. إذن فهو يتابع أفكارها ويبلغها ضمناً أنه سيكون على مستوى مخاوفها تماماً.

شرح خططه بهدوء. يقتضي مشروعه أن تقيم الشركة علاقات عمل كثيرة

مع «تشارتيريز»، مما يعني أن على «نورثون» أن تتوسع مهما كان الثمن.

قالت جينيڤر محتجة: عندما نتوسع بهذا الشكل، ستضعنا «تشارتيريز» في جيبها... ففي وسعكم أن تخفضوا من الأسعار وبالتالي تستطيعون شراءنا بكل سهولة!

فسألها ستيڤن بهدوء: «ألا تثقين بي؟».

وأضاف بارني: «جينيڤر، عزيزتي هذا التحامل ليس من عاداتك».

حتى تريڤور نفسه صدرت عنه إشارات الموافقة ما إن وقع نظره على الأوراق. وأدركت جينيڤر أنها خسرت هذه الجولة.

قال تريڤور عندما استعد ستيڤن للخروج: أريد معرفة شيء واحد. كيف علمت بأمر هذا الاجتماع؟.

بدت على شفتي ستيڤن ابتسامة ببرودة الشتاء وكآبته:

ـ عندما يصمم الرجل على إنجاز عمل ما، فهو عادة يضع الخطط ويدرس المشروع بدقة متقنة. وصدقني... أنا رجل بالغ التصميم.

كان يتكلم بوجه عام، لكن عينيه تسمرتا على جينيڤر. وفي اللحظة التالية أدار ظهره وترك القاعة.

بعد ذلك بأسبوع، نشبت في مكتب ستيڤن مواجهة عنيفة. فُتح بابه، وكما توقع، دخلت جينيڤر ثائرة.

قال بجمود: «ادخلي... قد أمنحك خمس دقائق».

لم تكن قد رأته منذ ذلك الاجتماع. بدا لها نحيلاً وحول عينيه هالات داكنة.

ـ لن أحتاج كل ذلك الوقت حتى أخبرك عن رأيي فيك... كنت أتحدث مع جدي لتوّي. كيف تجرؤ على إخباره بضرورة الغاء زفافي؟.

ـ لا يمكنك أن تتزوجي قبل أن يعود تريڤور من شهر العسل.

ـ ظننتني أعلم إلى أيّ مدى يمكن أن تنحط أخلاقياً!

فقاطعها ببرودة: «كنت مخطئة. لم تبدأي بعد باكتشاف ذلك. ربما تعلمين فيما بعد».

ـ لن ألغي زفافي بناء على أوامرك.

ـ إذن، سيكون لي دور في شركة نورثون أكثر فعالية أثناء غيابك.

جمدت جينيڤر في مكانها وهي تكتشف الفخ الذي نصبه لها: لن يكون لك فعالية أكبر إلا على جثتي.

ـ ولكنك لن تكوني موجودة.

همست: «أيها الشيطان! إذا ظننت أنني...».

ـ أنك ماذا؟.

لكنها خرست... فماذا هناك لتقوله؟.

أشارت سكرتيرته برأسها: موعدك التالي حاضر. هل أطلب منه الانتظار؟.

فأجاب: «لا حاجة لذلك. فالآنسة نورثون مغادرة».

بدا كلامه وكأنه يطردها. وقفت جينيڤر عند الباب والشرر يتطاير من عينيها تلقي عليه نظرة أخيرة... لكنه كان قد أدار لها ظهره.

* * *

أخبرت ماود، وهي تتنهد: لقد أرجأت الزفاف شهراً. لا أملك خياراً!.

كانتا تتناولان طعام الغداء معاً هذه الأيام... فأجابت ماود: لا أدري ماذا فعلت حتى بات مريراً إلى هذا الحد، لكنه متأثر حقاً. أنا لا ألومك... لا سيّما بعد أن حاول أن يغري دايڤيد بتلك الطريقة. من الغريب أن يكون أخرق إلى هذا الحد. وعلى كل حال، لا بد أنه يحبك.

انتاب جينيڤر الذعر وهي تشعر بكلام ماود يخترق أعماقها... ثم قالت لتخفي ذلك: يا له من احتمال بغيض.

فأجابتها ماود بحزن: رباه! حتى أنت! إنني أتمزق بينكما أنتما الاثنان. ماذا حدث ليفقد أخي رشده؟.

باحت لها جينيڤر بكل شيء، من اللحظة التي عرفت فيها ستيڤن إلى أن اكتشف وجود دايڤيد في سريرها.

- يظنني أستغفله . . . لن يصفح عني . . . بل سيتابع انتقامه حتى تصبح مجرد فرع من فروع «تشارتيريز» .

- في الواقع ، «تشارتيريز» على خلاف نوعاً ما مع ستيڤن ، لأنه لم ينتزع من «نورثون» شروطاً أفضل لمصلحة الشركة . . . يظنّونه منحازاً لشركة «نورثون» .

- وكيف عرفت؟ .

- لأنه يخبرني بكل شيء ، بعد أن أقسم على حفظ السر طبعاً .

- وهل تقسمين حقاً؟ .

- طبعاً ، وإلا لما أخبرني . . . بعد ذلك أتمكن من إخبارك . لكن يجب ألا يعرف بما يدور بيننا .

- لا تقلقي . لا أفهم ما هو المشروع الذي يقوم به الآن؟ .

فكرت ماود لحظة ، ثم قالت : الأفضل أن أخبرك بشيء آخر . كيف تظنين ستيڤن حصل على المال ليشتري ثلاثين بالمائة من «نورثون»؟ .

- كنت أتساءل عن ذلك!

- لقد أعطاه البنك قرضاً ضخماً . وقد رهن أسهمه في «تشارتيريز» ضمانة لذلك .

- ماذا؟ .

- إنه مقنع بكلامه جينيڤر . . . ولكن إذا تعرضت نورثون لخطر ما ، فسيخسر كل شيء .

ذهلت جينيڤر ، فمهما كانت نوايا ستيڤن ، فهو ملتزم بها بصورة جدية . لكن تصرفه هذا ليس نتيجة حب . بل في نفسه رغبةٌ محمومة ، تحولت مع الأيام إلى انتقام أخافها خوفاً شديداً .

قالت ماود متوسلة : «حاولي فهمه . لقد كافح ستيڤن معظم حياته ، لأجل أمنا ، لأجلي أنا ، وفي المدة الأخيرة لأجل نفسه فقط . وهو يريد الحصول على كل شيء . حتى إنه نسي كيف يقول (من فضلك)» .

فأجابتها جينيڤر وقد شحب وجهها : لطف منك أن تحاولي التوفيق بيننا .

لكن فات الأوان الآن .

عادت إلى بيتها متمهلة ، وهي تشعر وكأن الحياة تضيق كسجن . كانت في أعماقها مسرورة لأنها أخرت زفافها . لو تمكنت من التهرب من هذا الزواج لفعلت . . . ولكن ذكرى كلمات دايڤيد لا تفارق ذهنها : (شكراً يا حبيبتي . إنك تعتنين بي دوماً) .

لقد ناضلت بكل ما في وسعها لكي تفوز به . وها إن حاجته إليها الآن باتت عبئاً عليها .

كانت تتحرق شوقاً إلى ستيڤن رغم خصامهما . لم توحّد بينهما عاطفة محمومة بل هما يكملان بعضهما فعلاً . يضحكان معاً . . . ويقرأ الواحد منهما أفكار الآخر . . . كم أذهلها ذكاؤه . فلو أنه يحس بها . . . يحبّها . . . لو أنه فقط يحبّها ، لأحبته بكل جوارحها لكنه أخبرها بكل وضوح أنه لا يحبها ولن يتزوجها . وهو يتقرب إليها الآن انتقاماً لكرامته لا حباً بها .

أما آخر مشهد عنيف جمعهما في مكتبه فبمثابة اندثار أمل أخير . صحيح أن جرح كرامتها ما زال ينزف ، ولكان النزيف أسوأ لو أنها كانت تحبه . يبقى عزاؤها الوحيد في أنها آمنة من تلك الناحية على الأقل ، عليها أن تتمسك بهذه الفكرة ، وإلا لأصبحت الحياة لا تطاق .

* * *

كانت ماود موزعة بين اثنين ، ستيڤن وجينيڤر . . .

أصبح أخوها يتأخر هذه الأيام في عمله . لكنها وجدته ذلك المساء قابعاً في البيت سيء المزاج .

قالت له : «بحق الله إفعل شيئاً . . . اتصل بها قبل أن يفوت الأوان» .

قال ببطء : «لقد فات الأوان فعلاً» .

- تغديت مع جينيڤر اليوم فأخبرتني بحقيقة ما حدث ليلة زرتها في شقتها .

- وماذا هناك لتخبرك به؟ كانت في الفراش مع خطيبها .

- لا . لم يكن الأمر كذلك . لقد أصابه صداع مؤلم ، فأخذته إلى بيتها

ووضعته في السرير بينما نامت هي في الغرفة المجاورة.

فقال وهو يقهقه ساخراً: وهل صدقتها؟ رباه، كيف تصغين إلى كلام كهذا؟.

- لأن جينيفر قالت هذا، فأنا واثقة من أنه صحيح.

فزمجر يقول: «صحيح؟ إنه طبعاً صحيح. فهذا ما أتوقعه بالضبط من أحمق عديم الحيوية».

- حسناً، أظن لا ذنب للمسكين في تكوين شخصيته.

هب ستيفن واقفاً وسار نحو الباب، وكأنما الحركة تخفف من توتره. ثم قال بازدراء: سأخبرك بشيء ما. إذا كنت في فراش أكثر النساء حرارة وإغراء فأنا واثق أنني سأقدم على ما هو أكثر من الشعور بصداع.

* * *

في عصر أحد الأيام تلقت جينيفر المكالمة الهاتفية التي قلبت حياتها رأساً على عقب.

قال لها شاب: «أنا الشرطي «بكورت». لدينا رجل موقوف في مخفر «إينزلي». قبضنا عليه أثناء مشاجرة، فطلب منا الاتصال بك. اسمه «فريد ويزلي» وهو يدّعي أنه أبوك».

سحبت جينيفر نفساً طويلاً وهي تشعر وكأنها تلقت رفسة في معدتها.

- آنسة نورثون؟.

- سآتي حالاً.

قادت سيارتها إلى المخفر بحركة آلية وهي لا تقوى على التفكير... فأبوها عاد إلى حياتها بعد ستة عشر عاماً من الغياب.

كان أكبر سناً وأكثر نحولاً، فيما الشيب يتخلل شعره المشعث... بدا رجلاً عاش حياة خشنة لوقت طويل، لكنه ما زال يملك الابتسامة الواسعة المرحة نفسها، الابتسامة التي أسر بها قلبها الطفل.

- هل أنت مسرورة لرؤيتي؟.

قالت لتتجنب سؤاله: دعنا نخرجك من هنا أولاً.

لم يتحدثا طوال الطريق لكنه ما إن رأى سيارتها اللامعة حتى أطلق صفيراً طويلاً.

صفر مرة أخرى عندما رأى بيتها. ولكن كل ما قاله هو: «حسن».

قالت: «سأعد لك وجبة طعام».

كم افتقدته خلال كل تلك السنوات الطويلة! كم هزها الحنين إليه! كم مرة تساءلت لماذا لا يتصل بها! ولكن ها هي الآن تشعر بالحيرة والدهشة. لم تعرف ماذا تقول، بقي في نظرها رجلاً غريباً... إلى أن منحها ابتسامته المرحة الوقحة مرة أخرى، فبادلته الابتسام. ولكنها شعرت في اللحظة نفسها بصقيع خفيف يجلد قلبها. تساءلت كم مرة اعتمد فيها على ابتسامته هذه، وعرفت غريزياً أنها مرات لا تحصى.

سألته وهي تدخل المطبخ، بينما وقف هو ينظر إليها: كيف عرفت عنواني؟.

فأجابها: «قرأت عموداً في الصحيفة يتحدث عن جدك، ذكر فيه تريفور وجينيفر نورثون».

قالت بهدوء: لقد غير اسمينا عندما كنا صغيرين، ولم يكن لنا رأي...

- لا تهتمي، فالعجوز يتقلب في الثراء، وسرعان ما تضعين يديك على أمواله.

- هذا ليس...

أردات أن تجيبه لكنه حول وجهه عنها وأخذ يتأمل غرفة الجلوس.

قال ببطء: «رائع. لقد كوّنت نفسك جيداً».

- لماذا اتصلت بي وليس بتريفور؟.

ألقت عليه هذا السؤال أثناء تناول الطعام.

- لا أظنه كان سيكلمني. لم نكن منسجمين في صغره، لكننا، أنا وأنت كنا دوماً متحابين.

لم تستطع تجنب القول: كنا متحابين إلى درجة أنك هجرتني ولم تتصل بي قط بعد ذلك.

- لكنني فكرت فيك على الدوام. جدك ما أحبني يوماً. ولهذا رأيت أن أترككم فتعود أمك إلى أبيها ويهتم هو بكم بأفضل طريقة.

سألته بهدوء: «إذاً فتصرفك كرم أخلاق لأجلنا».

- هذا صحيح. إنها مشاعر الأبوة.

وعادت إليه ابتسامته.

قالت بتوتر: «لا يا أبي. أنا مسرورة لرؤيتك مرة أخرى، ولكنك لست بحاجة إلى اختلاق هذه الأعذار».

- حسناً، مهما يكن، فقد كوّنت نفسك جيداً. وهذا هو المهم.

- ماذا حدث لتلك المرأة التي اخترت أن تعيش معها؟.

- آه، تلك. لقد انفصلنا، فما يأتي بسهولة يذهب بسهولة.

فردت بهدوء: «النساء كالحافلات».

انفجر ضاحكاً: آه، لا بأس. نعم، إنهن أشبه نوعاً ما بالحافلات. لقد جربت التمسك بهذه وتلك، لكن حظي كان سيئاً.

- كان عليك أن تبقى على اتصال بنا.

- حذّرني جدك من مغبة ذلك.

قال ذلك بعفوية، وعندما رآها لا تصدقه هز كتفيه بلا مبالاة:

حسناً، عشتم من دوني بشكل أفضل. انظري إلى بيتك هذا. إنه حسن جداً... ممتاز في الحقيقة.

غرزت جينيڤر أظافرها في راحتها، متمنية لو يكف عن ترداد عبارة (حسن جداً). منذ سنوات وهي تحلم بهذا اللقاء، وعندما تحقق الحلم فوجئت برجل لا تعرفه ومن الصعب أن تحبه.

أخذت تكافح مشاعرها. لقد عاشت صورته في قلبها طويلاً ولا يمكن أن تنبذها الآن بسهولة. ثم راحت تطمئن نفسها: ستتحسن الأمور غداً. ليلة هادئة مريحة ستريح أعصابهما. أعدت السرير في غرفة الضيوف، مطمئنة إلى توفر كل وسائل الراحة.

بدا عليه الارتياح للنوم باكراً، فهو كما تصورت، قد اعتاد على نوم غير

مريح... وما إن غط في النوم حتى اتصلت بتريڤور. هتف أخوها بدهشة، لكنه لم يتصرف بسخرية كما كانت تتوقع.

وفي الصباح التالي وصل مبكراً، فتناولوا طعام الفطور معاً. لاحظت جينيڤر أن أباها أحسن التصرف عندما لم يتصل بتريڤور فليس بين الاثنين كلام يقال. بدا تريڤور مهذباً جافاً. ذكر موعد زواجه، وبعد الكلمات التقليدية المتعارف عليها، سأله والده: «لقد ظفرت بفتاة غنية، أليس كذلك؟».

جرحت هذه الكلمات تريڤور، فأجفل بشكل ملحوظ، ثم غير الموضوع... وعندما تهيأ للخروج، همس لجينيڤر قائلاً: لم أحبه منذ سنوات، ولن أحبه الآن.

ومسّ ذراعها بلطف: «إن كان لديك ذرة فهم، أبعديه عنك».

- لا يمكن أن يسبب لي الألم بعد ذلك الزمن الطويل.

- هذا ما أرجوه. أخشى أن تشعري بالعطف عليه.

- حسناً، لا تنسَ أنه أبونا. سأمضي هذا النهار معه.

كانت تخشى الأسوأ. لكن النهار جنح نحو الصفاء بشكل غير متوقع. كان أبوها حسن التصرف يضحكها على الدوام. تناول معها طعام الغداء بظرف بالغ. مجالسته كانت ممتعة للغاية. غادرها التوتر وأحست أن الأوان لم يفت بعد، وأنه يمكن إصلاح أخطاء الماضي.

اصطحبته إلى أحد المحلات حيث اشترت له بعض الملابس بما في ذلك بذلتين، بدا رائعاً فيهما. تناولا العشاء في «ريتز» تلك الليلة، ثم أخذت تخطط كيف سيقضيان يومهما التالي.

سألها: «لم لا تذهبين إلى العمل في الصباح بينما أذهب أنا إلى المقبرة لزيارة قبر أمك؟ ثم نجتمع بعد ذلك لتناول الغداء».

في الصباح التالي دلته على طريق المقبرة، ثم رتبت أمر اجتماعهما في ريتز» عند الساعة الثانية عشرة والنصف. في استراحة الغداء، خرجت مبكرة وانتهزت الفرصة لتشتري له ربطة عنق حريرية.

وصلت إلى المطعم قبل الموعد بعشر دقائق. وأمرت بالمقبلات. ثم

تصورت وجهه عندما يصل ويجد كل شيء جاهزاً.

الساعة الآن تناهز الثانية عشرة والنصف ولا أثر له. ربما نسي الوقت وتساءلت أياً من بذلتيه سيرتدي.

الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين! ربما كانت ساعتها معطّلة. سألت النادل فاكتشفت أنها في الواقع، الواحدة إلا عشر دقائق.

وفي الواحدة والربع، كفّت عن التظاهر بقراءة قائمة الطعام. ربما أصابه مكروه، عليها أن تتصل به في البيت، طلبت الرقم من هاتفها الخليوي ولكنها لم تلق جواباً.

ربما ضل طريقه. وربما لن يحضر.

بدأت تحدث نفسها بذلك. لن يأتي... لن يأتي... أخذت هذه الكلمات تتردد في رأسها حتى تصورت أن شخصاً آخر يرددها. وما لبثت أن أدركت أن الخيال استحال حقيقة.

كرر ستيفن قوله: «لن يحضر».

رفعت نظرها إليه وهو يجلس أمامها. ثم همست: كيف جئت إلى هنا؟.

- إن مشاكل الأسرة أصبحت تعنينا جميعاً. أنا أعلم كل شيء. هل ظننت حقاً أنه لن يخذلك مرة أخرى؟.

- الأمر... ليس كما تظن.

- بل هو كذلك، يا جينيفر. إن التاريخ يعيد نفسه. إنه الرجل الهارب نفسه. سبق وهرب منك، وها هوذا يهرب مجدداً... أظنه استغلك جيداً. كم أنفقت عليه؟.

إنها الحقيقة، وهي لم تهرب يوماً من الحقيقة.

قالت: «الكثير... لا بأس... علمت ما تريده الآن. فهل لك أن تبتعد عني من فضلك؟».

- ليس قبل أن أردد عليك بعض الكلمات!.

كيف يمكنه أن يعذبها الآن؟ كيف يقوى على ذلك مهما بلغ كرهه لها؟.

قالت بسأم: «اذهب، أرجوك».

- أنت المخطئة يا جينيفر. لا يمكنه أن يعود إلى الماضي... إلى طفولتك ويصلحها... ولا يمكنك أن تصلحيها بنفسك. ما حدث قد حدث. وقد ساعدك الماضي على أن تصبحي كما أنت الآن. امرأة تحتاج إلى الأمان والاستقرار في ظل رجل... أو تظن ذلك. لكنك تستطيعين أن تغيري ذلك، فأنت أقوى مما تظنين.

- إنك لا تعلم شيئاً عن هذا الأمر.

- أنا أعلم أن بإمكانك وضع كل ذلك وراء ظهرك إذا شئت. لا تدعي هذا يحطمك. فأنت قوية بما يكفي.

فقالت وقد عاد التوتر إلى داخلها: أنا لا أشعر بالقوة حالياً. كل ما أريده هو...

- أن تتركي كل شيء؟ لا تقولي هذا... ولا تفكري فيه... قفي على قدميك وحدك. تعلمين أنك تستطيعين ذلك. لست بحاجة إلى أي إنسان... حدّثي نفسك بذلك دائماً لأنها الحقيقة. ومن يدري؟ قد تملكين الوقت لتتجنبي الكارثة التي تسيرين نحوها. وهذا كل شيء.

ثم نهض مبتعداً من دون أن يضيف كلمة أخرى. ترك جينيفر تحدق في أثره مصدومة. بدت كلماته مواسية لكنه نطق بها من دون أي عطف... من دون أن تلين ملامحه الصلبة... دلها على الدرب لتنتشل نفسها من هذه المحنة، لكنه فعل ذلك من دون عاطفة. كان عدائياً كعادته، لكنه منحها القوة لتتغلب على ألمها. أو بالأحرى، دلها على قوتها.

عندما عادت إلى بيتها لم تجد أثراً لأبيها، أخذ معه كل ما اشترته له، ووضع المشتريات في أحسن حقيبةٍ لديها ثم رحل... كما اختفى دفتر شيكاتها الجديد من درج مكتبها، وعوضاً عنه وجدت ورقة تقول ببساطة: (آسف يا حبيبتي. لكنك لا تبخلين عليّ بذلك، أليس كذلك؟ أبوك).

مضت لحظة خفيفة للغاية ردتها سنوات إلى الوراء حين كانت وحيدة مستوحشة في عالم عدائي، وكان العالم حولها يصفر كريح مجنونة. أجفلت وتكومت على نفسها، تبحث عن ملجأ من تلك الريح، وتتلهف إلى ملاذ

تختبىء فيه.

لكن صوت ستيڤن كان يلاحقها قائلاً: إنك أقوى مما تظنين... ففي وحدك....

كان هذا صحيحاً. لقد عرف ستيڤن حقيقتها أكثر من أي إنسان آخر. بحث عنها ليقدم لها مواساة عنيفة لا تقبل حلاً وسطاً، وهو يدرك تماماً أن ذلك أكبر سند حقيقي لها.

رأت دايڤيد ذلك المساء، وأخبرته بكل شيء تقريباً لكنها لم تذكر ستيڤن.

قال وهو يمسك يدها: «يا حبيبتي المسكينة. كم تألمت!».

ففكرت: «لا أدري. لقد تخلصت من شبح. ولعل ذلك يفيدني أكثر».

- يمكنني أن أتصور ما أصابك... لقد عاد إليك الماضي بكل أذيته.

- ولكن هل في استرجاع الماضي ما يؤذي؟ ربما حدث هذا كي نواجهه ونجعل منه ماضياً حقاً. هذا شيء غريب. لم أفكر في هذا قط من قبل، ولكن كان علي أن أفعل هذا.

فقال برقة: «إنك تتقبلين الأمر بشجاعة، يا عزيزتي. أتمنى لو كنت موجوداً لأساعدك».

تمتمت تقول: «لقد حصلت فعلاً على المساعدة».

- أعلم أنني لم أكن إلى جانبك مؤخراً. أشعر أنني خذلتك. ولكن هذا لن يحدث بعد الآن. من الآن فصاعداً سأكون كما أردتني دوماً...

وأمسك بيديها متابعاً: «أنا مستعد دائماً لمساندتك جينيڤر! وعندما نتزوج لن أتركك أبداً. بل سنبقى معاً طوال حياتنا، وهذا وعد مني».

***

١٠ ـ أتمنى أن تندمي

كانت ماود تشعر بسعادة غامرة وقد غادرت حياتها المتألقة إلى حياة البيت. لكنها أرادت أن تكون قبلة الأنظار، لذا فضلت أن تطيل ثوب الزفاف قليلاً.

ترددت جينيڤر حين طلبت ماود منها أن تكون وصيفتها... لكن تريڤور ألحّ عليها، فقبلت كارهة. وبما أن ستيڤن سيصبح في العائلة، فلن تستطيع تمضية حياتها وهي تتجنبه. انتقت ماود ثوب جينيڤر بنفسها. وقع اختيارها على ثوبٍ من الحرير تبني اللون... طرازه بالغ الأناقة.

جهزت مراسم حفلة الاستقبال في حديقة فسيحة خلف منزل ستيڤن. في صباح يوم الزفاف، بكرت جينيڤر في الوصول إلى هناك فوجدت السرادق قد نصبت والطهاة في شغلٍ شاغل يروحون ويجيئون.

ولكن ما من أثر لستيڤن... أسرّت ماود إليها أنه خرج مبكراً، قائلاً إنه سيعود فيما بعد. وتساءلت جينيڤر هل يتعمد تجنبها.

وصل مزين ماود المفضل، فصفف شعرها بشكل لفافات ضخمة. ثم طلبت إليه أن يهتم بشعر جينيڤر، وراحت تكثر من التعليمات حتى اضطر إلى سؤالها أيهما العروس.

- أنا العروس، ولكن مظهري قد اكتمل، وأريد أن تبدو جينيڤر مكتملة المظهر هي الأخرى.

زينت وجهها بنفسها بيد سريعة خبيرة، ثم أخذت تزّين وصيفتها بنفسها. مما جعل جينيڤر تشك في نواياها، فقالت: إنك تضيعين وقتك.

سأتزوج دايفيد، وحتى لو لم أتزوجه، أخوك هو آخر من اختار.

فأجابتها ماود وهي تضع آخر لمسة على تبرّج جينيفر: «هذا غريب. إنه يردد الكلام نفسه، إنما بلهجة أكثر عنفاً».

فرغ المزين من تصفيف شعرها واعترفت جينيفر أن ماود خبيرة في هذا الحقل. نظرت إلى نفسها، كانت خصلات جعدة أنيقة تتناثر حول وجهها فتمنحها رقة زائدة. أما لون الثوب فأسبغ تألقاً دافئاً على بشرتها، وبدت عيناها السوداوان أوسع من العادة.

قالت ماود: «أحتاج كوباً من الشاي».

فردت جينيفر: «سأنزل وأحضر لك فنجاناً».

في الحقيقة، أرادت أن تنتهز الفرصة لتتدرب على السير بحذائها الفضي المتلائم مع الثوب. وعندما وصلت إلى أسفل السلم، سهل عليها. فتنهدت بارتياح ورفعت بصرها فإذا ستيفن يقف أمامها وعيناه مسمرتان عليها.

أفلتت من عينيه نظرة سرعان ما سيطر عليها! لكنها كشفت لها كل ما فضّل أن يخفيه. قرأت ذهوله للتغير الذي طرأ عليها! أحست بنظرة شوق ساخرة... فتح شفتيه الجافتين ليقول: لم أعلم بوصولك.

- انتهينا لتوّنا أنا وماود من الاستعداد... أنا ذاهبة لأحضر لها كوب شاي.

- لا وقت لذلك، فالسيارات وصلت.

- سأخبرها.

عدة كلمات تافهة تبادلاها، لكنها شعرت وكأن قوة ما تعصرها عصراً. وتساءلت كيف ستتمكن من تحمّل هذا النهار.

وأخيراً، حان وقت الرحيل. فإذا بماود تتهادى على السلم تحيط بها هالة من الروعة والتألق ثم تسير إلى حيث ينتظرها ستيفن في الردهة. ساعدتها جينيفر على الصعود إلى السيارة. أما ستيفن ففتح الباب الأمامي مستعداً للدخول.

فاحتجت ماود: المفروض أن تجلس معي.

أجاب بصوت هادىء وهو يجلس بجانب السائق:

- الأفضل أن تكون وصيفة العروس معك.

أثناء الرحلة القصيرة إلى الكنيسة، رفضت جينيفر أن تختلس النظر إلى ظهره. تذكرت ما قاله «مايك هاركر»... يقول ستيفن إن الأعراس مؤامرة نسائية تحوّل الرجال إلى مهرجين سخفاء! وهو لن يسمح لذلك بأن يحدث له أبداً... ربما يتحمل هذا النهار لأجل ماود فقط. ولا شك أنه فكر فيها هي كشريكة في هذه المؤامرة، فقد أوضح لها مرات كثيرة أن كل ما يريده منها هو علاقة غرامية فقط لا غير.

عندما وصلوا إلى الكنيسة، قدّم ستيفن ذراعه لماود، وساروا نحو الكنيسة. وما إن وصلوا حتى صدح صوت الأرغن فنظر تريفور إلى عروسه وابتسم ببهجة وارتياح وبادلته هي الابتسام، أنارت سعادتهما أرجاء الكنيسة. وشعرت جينيفر أن ماود ملكت قلب تريفور، فلم تفكر بشيء آخر.

ثم تذكرت فرح ستيفن عندما صرخت كطاغية من طغاة العصور الوسطى: (احضري لي رأس ستيفن لبري).

ولكنها تريد اليوم قلبه وليس رأسه. إنما من يحضره لها ولا قلب يخفق بين أضلع هذا الرجل؟.

أحنت رأسها فوق باقة الزهور، ثم غمرتها فجأة موجة من التعاسة. لا يمكنها أن تعترف قط، حتى لنفسها، بأنها أحبت ستيفن. لكن الألم سيستمر ويستمر، وهي لا تعرف كيف ستتمكن من تحمّله.

جلست ماود بجانب عريسها، وابتدأ القداس. سلّم ستيفن شقيقته لعريسها ثم وقف في المؤخرة. لم ينظر إلى ناحية جينيفر قط. ومع ذلك علمت أنه يشعر بها تماماً كما تشعر هي به.

وفي النهاية عزف الأرغن لحن النصر، وخرج العروسان من الكنيسة، يتبعهما المهنئون.

في باحة الاستقبال انضم دايفيد إلى جينيفر، قبل خدّها وأخبرها بأنها

رائعة الجمال. جلسا معاً أثناء إلقاء الخطبة الرسمية، وكانت الأنظار تتوجه إليهما على أنهما العروسان التاليان.

بعد ذلك افتتح العروسان حلبة الرقص، وقد تألقا بالحب والسعادة. رقصت جينيڤر مع دايڤيد، وهي تنتبه إلى ستيڤن يراقبها بعينين ملتهبتين. حتى الآن تمكن من تجنبها طوال السهرة. ومع ذلك توقعت أن يدعوها للرقص أو بالأحرى أن يأمرها بأن ترقص معه، لأن تلك هي عادته.

لكنه بدلاً من ذلك، نزل إلى الحلبة مع عارضة أزياء صديقة لماود رائعة الجمال. اضطربت جينيڤر ولم تستطع أن تنظر إليهما. فتوارت مبتعدة، ثم أخذت تجول في الحديقة بين الأشجار.

ولكن حتى هنا، لم تلق السلام المنشود، إذ تذكرت تلك الليلة الساحرة التي جالت فيها مع ستيڤن في حديقة جدها. لقد ضحكت معه، وأغاظته بطريقة تراها الآن قمة في الجنون. لماذا لم تدرك الطريق الخطر الذي كانت تسلكه؟ ألأنها كانت تقع في الحب؟.

في الجانب البعيد من الأشجار، وصلت إلى فسحة يعمل بعض العمال على إخلائها من الشجيرات وتسوية الأرض. وقد غرزوا في الأرض قضباناً معدنية تصل بينها حبال رفيعة. يبدو أنهم كانوا يحددون معالم مبنى ما.

سألت بفضول: «ما هذا؟».

وقف أحد العمال يجيبها بابتسامة عريضة ودودة: لست واثقاً، في الواقع. لقد أخبرونا بأن نخلي الأرض وننظفها من الشوائب.

ـ لماذا تحدّدون المعالم هكذا؟.

ـ لقد نقلت هذه عشر مرات، وأظنها ستنقل عشر مرات أخرى. فهو يستمر في تغيير رأيه.

ـ ولكن إلى ماذا ستتحول عندما تنتهي؟.

ـ ماذا تفعلين هنا؟.

التفتت جينيڤر وإذا بستيڤن خلفها مقطباً جبينه.

ـ مجرد فضول. لا مانع لديك إن تفرجت على حديقتك أليس كذلك؟.

فقال باختصار: «لا أحبذ وجودك هنا. فالأرض ليست سوية وأنت غير آمنة في حذائك العالي الكعب هذا».

وأمسك بذراعها يبعدها بحزم. شعرت بغضبه فأدركت أن اهتمامه بسلامتها هو مجرد غطاء. إنه سرّ... سر آخر يخفيه عنها.

سألها وهما يجتازان الفناء.

ـ هل رأيت أباك مرة أخرى؟.

ـ لا. عندما وصلت إلى البيت كان قد رحل آخذاً معه دفتر شيكاتي وقد استعمله أحسن استعمال.

ـ هذا حسن. إنك أفضل حالاً الآن لكنك بالتأكيد لا تظنين ذلك.

ـ بل أظن ذلك. وأنا شاكرة لك ستيڤن... لقد ساعدتني حقاً. وأتساءل عن سبب ذلك بينما أنت تكرهني.

ـ أنا لا أكرهك. ورغم كل شيء، أنا معجب بك وأحترمك. لكنني رأيت أن ذلك يساعدك على التفكير المنطقي لا سيّما بالنسبة إلى دايڤيد كونر.

ـ ما زلت مصممة على الزواج به. فهو بحاجة إليّ كما إنه يناسبني. ليتك رأيته عندما أخبرته عن أبي....

ـ أراهن على أنه قدم إليك حياة الحماية والعطف والرعاية. ستختنقين خلال شهر.

ـ لقد وعدته.

ـ تراجعي عنه، يا جينيڤر. تراجعي عن كل وعد قطعته على نفسك، بدلاً من أن تستمري في تحطيمنا، أنا وأنت.

فقالت بابتسامة شاحبة: لا أظنك تتحطم بهذه السهولة.

ـ أنا أريدك. لا يخفى عليك هذا السر...

ـ نعم، وأنا أعرف السبب. فأنا امرأة رجل آخر. إنه تحدٍ آخر لغرورك. ولكن هذا لا يكفي. فكر بي فقط وكأنني حافلة، يا ستيڤن. حافلة مرّت وخرجت من حياتك إلى الأبد.

ـ خرجت من حياتي؟ بينما أختي متزوجة من أخيك؟ لن نكون أبداً

منفصلين يا جينيڤر. وبعد أشهر سيكون لدينا ابن أخ وابن أخت مشترك بيننا نحن الاثنين.

ـ إذن سألوّح لك بيدي في حفل العماد، وكذلك زوجي. سأكون حينذاك متزوجة من دايڤيد.

ـ تباً لاختيارك هذا! إلى الجحيم بما تريدين.

ـ نعم سأتزوجه، لأن كلمتي قانون ملزم. هذا أول مبدأ علمني إياه جدي. قال إن كلمة الإنسان تلزمه في الحياة كما في التجارة.

ضحك ساخراً: «إنني أسمع لتوي أكبر مخادع في التجارة يقول هذا».

قالت: «ستيڤن، أرجوك، حاول أن تفهم. كيف أهجر دايڤيد الآن وقد ذُكّرت لتوي بمبلغ قسوة هذا الأمر؟».

ـ لا تسأليني أن أفهم، لا أستطيع. قلبي ليس برقة قلبك. أنا آخذ ما أريد عندما أستطيع. لن أختبر هذا النوع من الأداء العاطفي، لكن بإمكاني أن أمنحك حياة تستحق أن تعيشيها.

بات وجهه الآن مظلماً من شدة الألم: «يمكنني القول إنني أتمنى لك السعادة لكنني لن أتلفظ بمثل هذا الكذب. أنا أتمنى لك مستقبلاً كمستقبلي تماماً... حياة ندم مرّ، حافلة بالتساؤلات عما كان يمكن أن يكون. وداعاً يا جينيڤر».

* * *

عندما سافر العروسان إلى شهر عسلهما في الجزر الكاريبية، وتفرق المدعوون، وجد الجد بارني ستيڤن وحده في الحديقة، مستغرقاً في تفكير حزين.

قال له: «أنا أشعر بالخجل بك».

فأجابه ستيڤن بدهشة: «لا تخف علي».

ـ لست خائفاً عليك بل أستنكر أن تستسلم من دون قتال، أنت تدعي أنني مثالك الأعلى لكنك لم تتعلم ذلك مني قط.

قال ستيڤن ببطء: «لقد حاولت أن أقاتل ولكن هذا لم ينفع. في الواقع إن

القتال هو الذي قادني إلى مثل هذه الورطة، حسب قول ماود».

ـ إنها امرأة حكيمة. لكنك ما زلت لا تعد مفخرة لي رغم كل ما قمت به لأساعدك.

ـ اعلم هذا. وأنا شاكر لأنك نبهتني إلى ذلك الاجتماع.

ـ لكنني فعلت ذلك لسبب معين. أريد أن تفسخ جينيڤر هذه الخطبة بقدر ما تريد أنت ذلك... واعتقدت أنك الرجل الذي يمكنه أن يقنعها بهذا الأمر. ولكنك قمت به بشكل سيء.

ـ لابأس. ماذا كنت لتفعل مكاني؟.

ـ حسناً... أولاً، ما كنت لأضع نفسي في مثل هذا الموقف. لأنني أعرف جينيڤر جيداً.

ـ طبعاً، فهي حفيدتك. ولو كانت حفيدتي، لما وصلت إلى مثل هذا الوضع.

ـ إذا استمريت تتصرف بهذا الشكل لن يكون لك حفيدة أبداً. خصوصاً من جينيڤر.

ـ حسناً، هذا يناسبني تماماً. إذا كنت تظنني سأتزوج تلك العنيدة المتصلبة الرأس...

ـ هل تحبها أم لا؟.

ـ نعم، وتباً لذلك.

ـ إذن علينا أن نتحرك بشكل حازم قاطع. كل ما نحن بحاجة إليه هو نقطة الضعف في دايڤيد.

فقال ستيڤن: «آه، يمكنني أن أخبرك بها».

وعندما فعل ذلك، انبعث من عيني بارني لمعان الثعلب القديم، وصاح مبتهجاً: هذا هو المطلوب! آخر سهم في الجعبة، تماماً كما عاهدت نفسي. هذا ما سنفعله.

وعندما انتهى من كلامه، سكب ستيڤن لنفسه كوب شراب وقال هذا لن ينفع. حتى دايڤيد كونر لن يكون معتوهاً إلى هذا الحد.

ـ لا نهاية للحماقات التي يرتكبها الشخص حين يحب. وعلى كل حال، انظر إلى نفسك.

فكشر ستيڤن.

***

١١ ـ زفافٌ آخر

ـ هل تقبل بهذه المرأة زوجة شرعية لك تحبها وتهتم بأمرها...

منحها ستيڤن ابتسامة مليئة بالحب، وقال: نعم.

ولكن، عند ذلك تحول وجهه إلى وجه دايڤيد. فصرخت جينيڤر قائلة إنه ليس بالرجل الذي وقفت لتتزوجه. وأوشكت أن تهرب من الكنيسة لكن دايڤيد تمسّك بها.

ثم ما لبثت أن استيقظت فوجدت نفسها جالسة في الفراش ترتجف، بينما الدموع تغسل وجنتيها. فرددت باكية: آه، يا رب. ليس مرة أخرى.

جلست في الظلام لعدة دقائق قبل أن تجد القوة لتغادر السرير. كم حاولت تجنب هذه الأحلام! ولكن عبثاً فهي تلاحقها كل ليلة.

دخلت إلى المطبخ لتعد كوباً من الشاي، وأثناء ذلك أخذت تمسح دموعها الغزيرة ولكنها كانت تنهمر من جديد. وأخيراً جلست تحدق في الكوب، وأطلقت العنان لدموعها تنهمر كما تشاء. لم يكن الحلم هو نفسه دائماً. فأحياناً تتخيل أنها تتزوج من دايڤيد وإذا به يتحوّل إلى ستيڤن فيبتسم ويقول: أظننت أنني سأدعك تتزوجين رجلاً آخر؟.

وهذا هو أسوأ كابوس لأنه يمسّ منها وتراً. فهي في سرها، تتوقع منه دوماً أن يمنع هذا الزواج. كانت تعلم أن ماود قد أخبرته بحقيقة تلك الليلة، حين وجد دايڤيد في فراشها، وتعلم أيضاً أنه صدقها. إذن، فلا خصام بينهما! ولكنه، مع ذلك، لم يفعل شيئاً... وهي نفسها لا تعلم ما تتوقعه، لكنها لا يمكن أن تتصوره مكتوف اليدين بينما يخسر المرأة التي يريد.

www.elromancia.com

فليحرق المبنى، يخطف العريس، أو العروس، فليخرب حفلة الزفاف بأكملها! فستيفن قد يقدم على كل ذلك قبل أن يقبل الهزيمة.

لكنه فعلاً لا يريدها، على الأقل ليس بما يكفي ليتزوجها. هذه هي الحقيقة التي عليها أن تواجهها. ففي اللحظة نفسها التي أدركت فيها عمق حبها له، هز كتفيه وفقد اهتمامه بها. ثم أدار لها ظهره وراح ينتظر الحافلة القادمة.

وها هي الآن قبل ليلة واحدة من زواجها، محطمة القلب. لماذا؟ من أجل رجلٍ مرّ في حياتها ومضى تاركاً إياها للوحشة والهجران.

لم تر ستيفن أو تتحدث معه منذ أسابيع. وصلها منه فقط هدية زفاف من الفضة الأثرية، مرفقة ببطاقة تقليدية يتمنى لها فيها السعادة. فردت عليه برسالة تقليدية مماثلة تشكره فيها. وبعد ذلك حلّ الصمت.

لم تر دايڤيد سوى مرات قليلة أيضاً، إذ سافر إلى اسكوتلندا، يبحث عن مبانٍ مناسبة لتكون مستودعات لشركة نورثون. وقد خصه بارني بهذه المهمة ترحيباً به في العائلة. أما ردة فعل جدها لخطبتها، فخرساء بشكل غريب. فمع أنه يحب دايڤيد، إلا أنه ليس متلهفاً لهذا الزواج. وأدركت أنه وقع تحت سحر ستيفن.

حتى أخاها ينسجم تماماً مع ستيفن... فسرعان ما تلاشى عداؤهما إزاء حب تريڤور لماود وتفانيه في إسعادها... ولسوف يسر تريڤور إن هي تزوجت من ستيفن، لكنه كان يرحب بدايڤيد بأدب. ولم يكتف بذلك، لا بل اتصل به من الجزر الكاريبية ليقدم إليه سيارته الجديدة كي يستخدمها في رحلته إلى تلك المنطقة الوعرة. ضاعفت تلك الرحلة من حيرتها، فبالنسبة إلى جينيڤر اسكوتلندا منطقة غير مناسبة لبناء مستودعات. وساورها شعور قلق! أيعقل أن بارني لفق هذه المهمة كي يبعد خطيبها لا غير؟.

تأخر دايڤيد في العودة، مقدماً تفسيراً غامضاً لذلك. وأخيراً، أخبرها، كارهاً، السبب الحقيقي لتأخره.

ـ عندما كنت على جزيرة «أران»، سُرقت سيارة تريڤور. توقعت

الشرطة العثور عليها بسهولة لأن آخر عبارة غادرت المكان، وما من طريقة أخرى لإخراجها من الجزيرة حتى اليوم التالي. ولكن يبدو أنها تبددت مع الريح. بقيت منتظراً، راجياً أن يعثروا عليها كي لا أعود بدونها.

ـ لكنك عدت بها، مما يعني أنك وجدتها.

ـ بعد أسبوع وجدناها، وبكل بساطة، في موقف الفندق. والأعجب أنها لم تكن محطمة أو مسروقة. لا بل كان خزان الوقود ملآناً.

ـ عجباً! وما هو رأي الشرطة؟.

ـ وقعوا في حيرة مثلي. لم يجدوا على السيارة أية بصمات قد تقود إلى الفاعل. لا تعرفين كم ارتحت حين تمكنت أخيراً من العودة من دون أن أختلق أعذاراً غير مقنعة لتأخري. ومن حسن الحظ أن جدك لم يلاحظ أي شيء غريب.

فقالت جينيڤر بحيرة: لكن بارني قويّ الملاحظة عادة.

ـ ربما سكت من باب اللباقة. لقد قدمت إليه تقريري، ولكن كلما سألته عنه، تذرع بعمل ما. أنا واثق من أنه لم يزعج نفسه بقراءته. وربما يظنني عديم الفائدة.

فردت بحرارة: هذا غير صحيح بالطبع.

وفجأةً اجتاح جينيڤر ذلك الحنان القديم نحو هذا الرجل الرقيق وودت لو تحميه بكل أوصالها... ومع ذلك شعرت بشيء من الذعر فهذا الرجل يحتاج إلى من يسنده طوال الوقت، وإزاء هذا، لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في ستيفن. ترى كيف يتصرف لو كان مكانه؟ وهل يجرؤ إنسان على سرقة سيارة ستيفن؟.

بدا دايڤيد هادئاً جداً ذلك المساء.. لا شك أن تلك الرحلة الطويلة أرهقته وأثقلت كاهله. أخذت لقاءاتهما تقل قبل الزفاف، فيتذرع هو بعمله في شركته كي يؤمن كل شيء قبل رحلة شهر العسل أما جينيڤر فأذعنت لذلك، وهي تشعر بالذنب للارتياح الذي تملكها.

منذ ذلك الحين، لم يتقابلا أو يتحدثا إلا نادراً. وأحست بالهجران. إنها

ضائعة بين رجلين، لكنها لا تستطيع أن تتصل بأي منهما.

وبعد ساعات قليلة، سترتبط برجل تكن له الكثير من المودة ولكن ليس الحب. فدايفيد ظريفٌ رقيقٌ، ولكن تنقصه القوة الفولاذية التي تبحث عنها. ولا يعني هذا أن الرجل الفولاذي الذي عرفته كان مثالياً. فهو متغطرس لا يطاق... عديم الصبر فظ وحقود!.

لم تعد إلى الفراش مخافة أن يراودها حلم آخر. وبدأ ضوء النهار ينتشر. سرعان ما تصل ماود إلى هنا لتزين (العروس السعيدة)! تمالكت نفسها، وعندما وصلت ماود، كانت قد مسحت دموعها واستطاعت أن تبتسم.

لبست فستان الزفاف. كان ثوب كوكتيل قصير بلون القشدة، تعلوه قبعة صغيرة مناسبة. ثم زينت ماود وجه جينيفر بخبرتها العالية، ووقفت بعيداً تتأملها بإعجاب.

ـ تبدين جميلة جداً.

وألقت نظرة من النافذة: ها قد وصلت سيارة الجد بارني، هل نذهب؟.

فقالت جينيفر:

ـ لحظة... لحظة واحدة. إنني غير جاهزة تماماً.

كانت بحاجة إلى مزيد من الوقت، على الأقل كي تتجاهل الألم في قلبها. وفي النهاية، لم يعد الموقف يتحمّل الإرجاء. فشدت على يد ماود، ثم خرجت إلى حيث ينتظرها جدها.

لم يتحدثوا كثيراً وهم في الطريق إلى مكتب تسجيل الزواج. أخفت جينيفر ألمها وراء ابتسامة لم تفارق شفتيها، بينما بدا اضطراب غريب على الاثنين الآخرين. اخترق بارني هذا الصمت غير العادي. فسأل ماود للمرة المائة: هل أنت واثقة من أنك تعتنين بنفسك؟ ما زلت تبدين نحيلة!

ـ لا تخف عليّ. إنني أقوى بكثير مما يبدو عليّ.

(أنت أقوى مما تعلمين).

وانتصبت جينيفر في جلستها مصدومة. لقد فتحت كلمات ماود باباً في ذاكرتها ودخل ستيفن من خلاله كما فعل عندما هجرها أبوها مرة أخرى. قال

لها حينها: (أنت أقوى مما تعلمين... قفي على قدميك وحدك... لست بحاجة إلى أي إنسان، لا إلى والدك ولا إلى دايفيد ولا إليّ أنا).

مضى وقت طويل قبل أن تستوعب معنى كلامه، وتفهم ما يجري بوضوح. لكن الأوان فات الآن. أراد ستيفن أن يفصل بينها وبين دايفيد لأسبابه التي تتنافى مع الأخلاق. فأعماها الغضب عن رؤية الحقيقة البسيطة: إن ستيفن فهمها دوماً أكثر من أي شخص آخر.

لا يمكنها أن تتزوج دايفيد. فحبها لستيفن يمنعها من أن تلحق به ضرراً إذا تزوجت من دون حب حقيقي. عليها أن توقف هذا الزواج الآن، وبعد ذلك تخبر جدها أنها ستنسحب من الشركة.

أما كيف ستكون حياتها، فالوقت ما زال مبكراً للتفكير. ولكنها تعلم أن الحيوانات المهجورة ستشكل جزءاً لا يتجزأ من حياتها.

وستيفن؟ ليس لديها فكرة عما سيحدث بينهما. لكنها ستواجهه كامرأة حرة الآن، حرة وقوية كما علمها أن تكون.

كل هذه الأمور ومضت في ذهنها بسرعة البرق، لقد اتخذت قرارها قبل أن يسألها أحد لماذا تحدق في الفضاء.

سألت جدها لاهثة: أمعك هاتفك الخلوي، يا جدي؟.

ـ كلا بالطبع، لا سيّما وأنا ذاهب إلى العرس.

صرخت: «أوقف السيارة».

وخرجت تركض بذعر إلى أقرب كابينة هاتف. عليها أن تكلم دايفيد قبل أن يغادر البيت... لكن أمه هي التي أجابتها.

ـ لقد خرج دايفيد منذ ساعة. وقال إنه سيراني هناك.

عادت جينيفر إلى السيارة وهي تقول لمن معها لاهثة: لا أستطيع أن أخبركما بشيء الآن.. الأمر فقط... أنا فقط... لا أستطيع قول شيء الآن.

من حق دايفيد أن يكون أول من يسمع. ولكن حبذا لو أن ذلك لا يكون في مكتب تسجيل الزواج! وفي غمرة اضطرابها لم تر النظرة السريعة التي تبادلها

جدها وماود.

وعندما وصلوا، كان قلب جينيڤر يخفق بسرعة. ستكون نصف الساعة التالية صعبة جداً، لكنها لن تضعف. يا ليت العزيز دايڤيد لا يشعر بألم كبير!

كان بعض أفراد أسرته موجودين، وسرعان ما وصلت والدته وقد بدا عليها القلق وهي تقول: ظننته سيكون معي في السيارة. لكنه قال فجأة إن عليه أن يقوم بأمر مهم أولاً. آه، أتمنى لو يصل بسرعة.

سرى شيء من الاضطراب بين الموجودين والتفتت الرؤوس. لكن ستيڤن هو الذي دخل الآن. كان وجهه خشناً رزيناً. وظنت جينيڤر لبرهة أنه سيتقدم نحوها لكنه أشاح بوجهه مبتعداً، فأدركت أنه لن يحاول إيقاف الزواج. وسيلقي ذلك الرفض بظله على علاقتهما في المستقبل، لو نشأت بينهما علاقة.

ثم رفعت رأسها. ستيڤن نفسه أخبرها أنها من القوة بحيث لا تحتاج إليه. ستثبت له أن هذا صحيح، مهما تألم قلبها.

حان وقت عقد الزفاف، ولم يأت دايڤيد بعد... ثم استدعي عروسان آخران لعقد الزواج. نظرت جينيڤر حولها حائرة... من عادة دايڤيد أن يكون دقيقاً جداً في مواعيده! هذا جزء من شخصيته. وهي الميزة الوحيدة التي يبدع فيها فعلاً.

وفجأة سرت همهمة بين الموجودين، التفتت جينيڤر لترى دايڤيد واقفاً عند العتبة، ولكن على غير عادته. لم يكن مرتدياً ملابسه الرسمية، كما أنه لم يكن وحده. كانت «بيني» بجانبه ممسكة بيده. وفي وسط الغرفة تواجه العروسان. وكلّ منهما شاحب متوتر. تنفست جينيڤر بعمق، لكن دايڤيد تكلم أولاً: أنا آسف يا جينيڤر. لا أستطيع الزواج بك... أنا أحب «بيني».

بدت الكلمات معلقة في الهواء. حملقت جينيڤر فيه ذاهلة، فلم تلمح نظرة الفوز التي سرت بين ستيڤن والجد بارني.

قال دايڤيد متوسلاً: جينيڤر.. أرجوك.. قولي شيئاً..

لقد شهد مكتب الزواج عرائس مهجورات من قبل، ولكنه لم يشهد يوماً

عروساً تهتف ابتهاجاً بذلك ثم تحتضن عريسها بارتياح بالغ.

قالت باكية: لشدّ ما أنا مسرورة. آه، يا دايڤيد. كم أنا مسرورة!

ـ أنت... أنت مسرورة؟.

ـ لم أكن أريد إتمام هذا الزواج. ما كان لنا أن نعقد خطبتنا قط. كل ذلك ذنبي أنا. حاول أن تصفح عني.

أجابها بارتياح: إنك أعظم امرأة في العالم. أنت أعظم من أن تتزوجيني. أظنني أحببت «بيني» منذ حفلة العمل تلك، لكنني لم أكن واثقاً في البداية. وإذا بنا ننعزل في الجزيرة معاً بمفردنا.

ـ هل كانت «بيني» هناك معك؟.

ـ لقد نسي جدك أن يعطيني بعض الملفات الهامة، وهكذا اضطرت إلى موافاتي إلى هناك. وفي ليلة وصولها سُرقت السيارة، فكانت قمة في الشجاعة.

فتمتم ستيڤن: «طبعاً».

ـ أصبحت مشاعرنا أقوى منا...

ونظر إلى بيني التي ضغطت على يده مشجعة، فتابع: وشعرنا أن من الأفضل أن نكشف عن حبنا..

فقال ستيڤن ساخراً: يا للحكمة! وما من شيء أودع من ترك الأمور إلى آخر لحظة.

فقالت جينيڤر له وهي تلكمه في أضلعه: هل لك أن تسكت؟.

كانت مرتاحة تماماً ومع ذلك خالط بهجتها شعور بخيبة الأمل لأن ستيڤن لم يحاول منع زواجها. وهكذا لم يتغير الوضع إلاّ قليلاً.

التفت دايڤيد إلى أمه يشرح لها الأمر، وكان الارتباك بادياً عليها. ولكن جينيڤر لاحظت أنها سرعان ما تشعر بالسرور. فهي تعلم أن هذه المرأة الصغيرة الجسم ستشعر بالتضاؤل أمامها، ولهذا ستناسبها «بيني» أكثر بكثير.

أما ماود وتريڤور فتعانقا بسرور بالغ. وتملكت الحيرة جينيڤر وهي ترى ستيڤن وجدها بارني يتصافحان بقوة وهما يضحكان.

وأخيراً قال الجد بارني بلهجة الفوز: الثعلب لم يفقد مهارته بعد. أنا الذي فعلت ذلك.

فقال ستيڤن وعيناه على جينيڤر: بل نحن اللذين فعلنا ذلك. أريد أن أعترف باشتراكي في هذه الخطة رغم أنك العقل المدبّر.

سألت جينيڤر: «ما الذي تتحدثان عنه؟».

أجابها ستيڤن: «يدهشني إلحاحك على السؤال. هل ظننت حقاً أنني لن أعرقل هذا الزواج؟».

توسلت إليه وقلبها يخفق: ولكن ماذا فعلت؟.

ـ منحنا دايڤيد الفرصة ليكتشف أنه يحب «بيني» حقاً.

وقال بارني: لقد أرسلته إلى اسكوتلندا في مهمة عقيمة، ثم أرسلت بيني خلفه. طلبت منه أن يصطحبها في البداية، لكنه رفض....

فقال ستيڤن ساخراً: أراد أن يكون نبيلاً على حسابنا.

فقالت جينيڤر وقد أسخطتها سخريته: النبل شيء لا تعرفه أنت مطلقاً.

ـ لن تجديني نبيلاً حين أسعى وراء مصلحتي.

فقال بارني يفض النزاع: دعكما من هذا الأمر الآن. لقد اخترعت قصة الملف كي تضطر إلى اللحاق به.

قالت جينيڤر بحيرة: وماذا عن سرقة السيارة؟.

فقال ستيڤن.

ـ هذا أسهل ما في الأمر. (فاللص) يعمل لحسابي وكان مسلحاً بمفتاح سيارة تريڤور الاحتياطي، وهكذا ساقها مبتعداً بها من دون مشاكل. وقد أخذها ليلة وصول «بيني»، ثم ركنها في مرآب خاص حيث تركها هناك أسبوعاً. كان علينا أن ننتظر إلى أن تهزم مشاعر خطيبك ضميره.

فقالت جينيڤر: وهذا شيء آخر لا تفهمه أنت.

فقال: «لا أشعر بوخز الضمير قط خاصةً عندما أسعى إلى هدفي. لكنك كدت تهزمينني بعنادك الجنوني».

ـ أنا؟ إذا ظننت...

فقال بحزم وهو يأخذها بين ذراعيه: اسكتي يا امرأة وعانقيني.

غنى قلبها لعناق الرجل الذي تحب. العناق التي ظنت أنها لن تعرفه مرة أخرى أبداً. عند ذلك صرخ دايڤيد فجأة: تلك هي. لقد تذكرت.

والتفت الجميع إليه.

ـ ليلة خطوبتنا. لقد رأيتكما معاً عندما استيقظت، لكنني كنت شبه أعمى بسبب الصداع فلم أفهم ما رأيت جيداً. وفي الصباح التالي كنت أعلم أنني رأيت شيئاً هاماً لكنني لم أستطع أن أتذكر ما هو. كدت أجن. لكنني تذكرت كل شيء الآن.

قال ستيڤن ببطء: من المؤسف أنك لم تتذكر ذلك قبل الآن، وإلا لوفرت علينا كثيراً من الإزعاج. والآن، هيا، أيها الفتى الطيب، واخطب مرة أخرى.

فقال دايڤيد وهو ينظر إلى «بيني» بزهو: فعلت ذلك في الواقع.

فقال ستيڤن وهو يواجه جينيڤر:

ـ هذا رائع. لقد أصبح الواحد منا للآخر الآن، لديّ ما أقوله لك، فاصغي إليّ جيداً، فلن أكرر ما أقوله مرة أخرى. كدت أفقدك لأنني لم أخبرك كم أحبك وأحتاج إليك. لا أستطيع أن أتصور بقية حياتي من دونك. ولكن ذلك لن يحدث والحمد لله، فقد عدنا والتقينا في الوقت المناسب.

إنه يفصح عن حبه! لم تصدق نفسها... فلطالما تلهفت إلى ذلك! بدا وكأن قلبها سيطير لشدة الفرح. ومع ذلك، حتى الآن، لا تزال ثقته بنفسه تفوق الحد فإن أرادت السعادة معه فهي بحاجة إلى البدء من الصفر. فقالت تتحداه: «أنت تريد علاقة محمومة فقط... هذا ما قلته لي»..

لكنه أجابها بحزم: «لن أقيم علاقة معك ولا بعد مليون سنة... سنتزوج. فقد تحاولين الزواج من رجل آخر، ولا أطيق أن أتحمل ما تحملته مرة أخرى».

فقالت بالحزن نفسه والحزم نفسه.

ـ العلاقة هي ما أردته دوماً. والعلاقة هي ما أقدمه لك الآن.

فقاطعهما موظف المكتب: أرجو المعذرة. ولكن هل زواج نورثون ـ كونر مستمر أم لا؟.

فقال ستيڤن بحزم: «كلا».

ـ في هذه الحالة، هل لي أن أطلب خروجكم جميعاً؟.

فقال بارني: «هيا بنا، ينتظرنا كل ذلك الطعام على الموائد، سنقيم حفلة».

فقال ستيڤن وهو ينظر إلى جينيڤر: ولكن من دوننا. سنقيم حفلة خاصة بنا. هيا معي.

سحبها من يدها ثم جرّها نحو الباب بينما هتف لهما الآخرون بابتهاج وتشجيع، لكن جينيڤر وقفت تلقي بباقة أزهارها إلى «بيني» وهي تصيح بها ضاحكة بينما ستيڤن يدفعها إلى الخارج.

ـ ادعينا إلى عرسك.

وقبل أن تدرك ما حصل، وجدت نفسها في سيارة يقودها بتركيز عنيف. ثم قال: لقد قضيت وقتاً طويلاً مضطربة الأعصاب. أخبرتك منذ ليلة تعارفنا أنك مشوشة الذهن. من الآن فصاعداً سأستلم أنا مقاليد الأمور.

ـ أموري؟ وأمور حياتي؟.

ـ أمر علاقتنا كله. لن أسمح لك مرة أخرى بأن تجعليني أمرّ بما مررت به هذا النهار.

عندما وصلا إلى بيته أسرع بها إلى الطابق الأعلى وهو يمسك بيدها بشدة وكأنما يخاف أن تهرب منه... وعندما أصبح في غرفته وأغلق الباب خلفهما، قالت له: هل أستطيع أن أتكلم الآن؟.

ـ تكلمي.

ـ ماذا تظن نفسك فاعلاً؟.

ـ ما أمضيت الليالي أحلم بفعله. ليلة بعد ليلة، وأنا كالمجنون أخاف ألا آخذك بين ذراعي مرة أخرى... بينما أنت غير مهتمة! كنت في منتهى الهدوء وضبط النفس، فيما أنا طوال الوقت أحترق في جهنم.

أخرسها عناقه قبل أن تجيب، لكنها تجاوبت معه من دون كلام، بعد أن كانا على مشارف الهاوية، ينظران إلى مستقبل لا يجمعهما معاً.

تصرف ستيڤن معها وكأنها كنز عثر عليه بعدما ظن أنه فقده إلى الأبد.

لكن عناقهما الآن جرف كل مخاوفهما السابقة.

هذا هو الأمان الذي طالما حلمت به لكنها ظنت أن ستيڤن لن يمنحها إياه أبداً. لو علمت حينذاك ما تعرفه الآن، لأدركت أن الأمان يكمن بين يدي الرجل الذي يحبها بكل عواطفه، ولا يخاف شيئاً بقدر ما يخاف أن يفقدها.

سألها: هل سمعتك تقولين لدايڤيد إنك لا تريدين الزواج منه أيضاً، أم تراني تصورت ذلك؟.

ـ بل قلت ذلك حقاً. لقد قررت هذا في السيارة. كان الحق معك، فأنا أقوى مما ظننت. كما إنني سأترك شركة نورثون أيضاً. أريد أن أبحث عن طريق خاص لحياتي.

ـ ستذهبين معي على طريق الكنيسة، حيث نعقد زواجنا.

ـ قلت إنني لن أتزوجك. ألم تسمع؟.

ـ أنا لا أسمع الكلام الفارغ أبداً. أنني أحبك. ما رأيك في أن يكون الموعد بعد ستة أسابيع؟.

ـ وأنا أحبك أيضاً. ولكن هل لديك فكرة عن تصرفاتك القاسية والبذيئة؟ تحرك الناس حولك وكأنهم دمى بين يديك، وترسل دايڤيد و «بيني» هنا وهناك، ثم تعزلهما في الجزيرة فقط لأن هذا يناسبك.

ـ ألست مسرورة لما فعلت؟.

ـ هذا خارج عن الموضوع... وإذا كنت تتصوّر أنني سأتزوج رجلاً لا يعني بالحديث المهذب إلا اعطاء الأوامر...

ـ أوامر؟ أنا؟ إنني روح الوداعة والرقة...

ـ من قال لي (إنني لن أمرّ بهذا النوع من الأداء العاطفي)؟.

ـ انسي ما قلته حينذاك، وأصغي إلى ما أقوله الآن.

ـ ومن أخبرني أيضاً بأنني قوية لدرجة أستطيع أن أقف وحدي، لأنني

لست بحاجة إلى أحد، بمن في ذلك ستيفن ليري؟.

ـ كنت أحمق، يا جينيفر. لقد وتّرت أعصابي. أليس كذلك؟.

قالت متأملة: «تقريباً. أنا أعلم أن بإمكاني الوقوف على قدميّ الآن، وأنت علمتني ذلك».

فقال بعنف: «والآن احفري هذا في رأسك وإلى الأبد. ستتزوج، ليس في مكتب الزواج ولكن في الكنيسة. وسترتدين ثوب زفاف أبيض وتحملين أزهاراً وتبدين غاية في الروعة. أما أنا فسأرتدي بذلة بيضاء وأبدو أبله سخيفاً. كما يجب أن يبدو العريس. ولكن هذا لا يهم فلن ينظر إليّ أحد بل سيفكرون كم أنت جميلة وكم أنا محظوظ. سيكون عرساً رائعاً. وبعد ذلك...».

سألته وقلبها يخفق: «وبعد ذلك ماذا...؟».

ـ بعد ذلك لن أفلتك أبداً مرة أخرى. الآن استقر أمرنا....

سألته بمكر: «استقر أمرنا؟».

ـ نعم. والآن، هيا أريد أن أريك شيئاً.

فسارت بجانبه مبتهجة وهي تتساءل أين يذهبان. لكنها سرت لمجرد أن ذراعه تلف خصرها.

سارا بين الأشجار إلى المكان الذي رأته فيه يوم عرس ماود. بدت فسحة الأرض نظيفة تماماً الآن، وقد شيّد فوقها أساس مبنى. ولكن يبدو أن العمل متوقف.

قال لها: «لا يمكن أن يتم البناء من دونك. فأنا أريد رأيك قبل مباشرة البناء».

ـ رأيي في ماذا؟.

ـ آه، ألم أذكر لك ذلك؟ سيكون هذا ملجأ للحيوانات.

ـ ماذا يا ستيفن؟.

ـ إنها هدية عرسك مني وبما أنني متغطرس لا يطاق فقد باشرت العمل قبل أن توافقي على الزواج مني.

قالت بعجب وهي تلهث: «ملجأ؟».

ـ حسناً، ظننت هذا يعجبك، ولكنني سأبقى بحاجة إليك في «نورثون». لفترة على الأقل. ولكن تدريجياً، سيقل وجودك في الشركة، وتركزين اهتمامك على إدارة هذا المكان. حتى عندما تتركين عملك، سيظل لك دخل من أسهمك. وتستعملين ذلك في الإنفاق على العمال الذين تحتاجين إليهم هنا. رأيت أن تبدئي بعامل واحد، ولكن فيما بعد...

قالت محتجة: «ما هذا؟ لقد قمت بكل شيء، أليس كذلك؟ ماذا عن رأيي؟».

ـ أتراني أخطأت؟ لا بأس. أخبريني كيف تحبين تنظيم الأمور.

ـ حسناً... في الواقع... أحب أن أقوم بكل ما قمت أنت به ووصفته. ستيفن، إذا كان فيك شيء يغيظني، فهو مهارتك في قراءة أفكاري، وتكهنك بما أريده حتى قبل أن أريده...

وسكتت بعد أن انفجر ستيفن بالضحك. ثم قال أخيراً: آسف، عليك أن تتأقلمي مع عادتي المشينة في أن أكون على صواب دوماً.

ـ وبماذا سأفكر أيضاً؟ أخبرني الآن ووفر عليّ تعب التفكير بنفسي.

ـ حسناً، ينبئني ذكائي بأنك ستفكرين في توسيع الملجأ حتى لا يتوجب أن ننتقل من البيت كي نفسح المجال للنزلاء...

ـ المقيمون. ولا تهتمي بالمكان الذي يأتون منه. فالمؤسسات الخيرية لديها الكثير من الحيوانات الضالة الشاردة وهي لا تعلم كيف تتصرف بالفائض منها. سيتلهف المدراء إلى الاجتماع بك. عندما توافقين على الخطة، سأطلب من العمال أن يباشروا بالأساس ومن ثم...

أحاطته بذراعيها وعانقته. فهو أول إنسان يتعاطف مع هذه الناحية من حياتها ومن دون نقاش... حاولت أن ترد له جميله لأنه يعرف ما تحتاجه ويساعدها على تحقيقه.

ثم قالت: «إذن فهذا هو السرّ الكبير الذي أخفيته عني أثناء حفلة زفاف تريفور وماود؟».

ـ أردت أن أستمتع بمفاجأتك به، وكدت تفسدين كل شيء باكتشافك هذا المكان. وبالمناسبة، قلت لك إنه هدية زفافك.

فردت على الفور: سأتزوجك! سأتزوجك!.

فقال ضاحكاً: «عرفت أنك تقبلين. ولكن، في الواقع، لديّ هدية أخرى لك. إنها هناك قادمة للبحث عنا».

أطلقت جينيڤر صرخة ابتهاج وهي ترى أمامها قطة سوداء صغيرة ذات مخالب بيضاء. ولم تلبث القطة أن قفزت إلى حجرها وأخذت تداعبها.

ـ أهو نفسه حقاً؟.

ـ إنه بذاته. لقد فتشت عن تلك الأسرة وأخبرتهم بأنني أريد «مخالب» رقم اثنين حالما يكبر ويستطيع العيش وحده.

ـ لكننا سمّيناه ستيڤن.

فقال بحدة: «إياك أن تجروئي على إطلاق اسمي عليه، فهو معتوه تماماً. ما أن أخذ يسير في الأنحاء، حتى بدا عليه التثاقل وقلة الحيوية».

تنهدت راضية:

ـ آه، ما أجمل هذا! أظنك بدأت في التخطيط لهذا بينما كنت تكرهني.

ـ أنا لم أكرهك قط. لم يعجبني منك استخلاص المعلومات لأجل دايڤيد. عندما قلت إن الأمر لا يعدو مزاحاً، أظنني صدقتك. لكن كرامتي تأثرت حينذاك ولم أستطع التفكير بشكل سويّ. أحسست أنني مجروح لكنني سرعان ما انتبهت إلى تسرعي. وهكذا أخطأت في كل شيء. أردت أن أفصلك عن دايڤيد بالقوة بدلاً من أن أخبرك بأنني أحبك، وهو ما كان عليّ أن أقوم به. وعندما دفعتك حماقتي إلى تلك الخطوبة، كدت أجنّ حقاً. وهكذا بدأت أعد هذا المكان هنا لأطمئن نفسي بأن الأمور ستكون على ما يرام. لكنني في كل خطوة أخطوها، كنت أزيد الأمور سوءاً حتى كاد يوم زفافك يقترب. أظن جنوني ازداد حينذاك. ومن حسن الحظ أن بارني تقدم لانقاذي، وفكرنا معاً في هذا المشروع لنجمع بين دايڤيد و «بيني».

ـ ولكن، يا حبيبي، لنفرض أن دايڤيد لم يشأ أن يتركني؟ أكنت تملك

خطة، أيضاً؟ أم أنك كنت لتجلس هناك بوداعة وتنظر إليّ وأنا أتزوج رجلاً آخر؟.

منحها ستيڤن أكثر ابتساماته مكراً، ووضع القط على الأرض ثم جذبها إليه متمتماً: «يا حبيبتي... يا أعز الناس لديّ... ما رأيك؟».

***